٨- تجديد الخطاب الدينى فى مصر
تحليل آراء عينة من الجمهور العام

د. إبراهيم البيومى غانم

مقدمة:

لم ينقطع الجدل الفكرى والسياسى حول علاقة الدين بالدولة الحديثة فى المجتمعات المعاصرة -وبخاصة فى العالمين العربى والإسلامى- ويمكن القول: إن مدة هذا الجدل فى بلادنا قد جاوزت مع بداية القرن الحادى والعشرين المائة سنة.

ولكن ثمة مراحل احتدم الجدل خلالها حول موقع الدين فى الدولة الحديثة، ودوره والإشكاليات التى تحول دون تفعيل هذا الدور أو تسهم فى تفعيله، ومن ذلك، المرحلة التى تشمل الربع الثانى من القرن العشرين، أو ما يُطلق عليها البعض اسم «العهد الليبرالى» فى تاريخ الفكر العربى الحديث. وثمة مراحل أخرى هدأت فيها حدة الجدل حول هذا الموضوع، ومن ذلك المرحلة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية واستمرت حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضى تقريبًا؛ وهى المرحلة التى شهدت صعود حركة التحرر الوطنى من الاستعمار الأجنبى، ونجاحها فى تحقيق الاستقلال السياسى، وبناء الدولة الوطنية المستقلة فى أغلب البلدان العربية.

ويمكن القول: إنه مع بداية الربع الأخير من القرن الماضى، بدأت موجة جديدة متصاعدة الحدة من الجدل حول الموضوع نفسه، وعلى نطاق واسع هذه المرة عبر مختلف البلدان العربية والإسلامية، وكانت مصر بطبيعة الحال فى القلب منها، والملفت للنظر فى موجة الجدل الجديدة أنها -فى جانب أساسى منها- تعيد مناقشة القضايا نفسها التى سبق أن أثيرت ونوقشت فى المراحل السابقة، وبخاصة فى مرحلة العهد الليبرالى، وبخاصة فيما يتعلق بدور الدين فى المجتمع، وعلاقته بالدولة وبشئون الحياة بصفة عامة، كما أن ملامح خريطة القوى والتيارات السياسية والفكرية المشاركة فى تجديد الخطاب السجالى بهذا الشأن تكاد تتطابق مع نظيرتها فى المرحلة السابقة المشار إليها؛ مع ملاحظة وجود عدة اختلافات تتعلق بمدى عمق الرؤى الفكرية المطروحة -؛إذ كانت فى السابق أكثر عمقًا وثراءً- وبالسياق الاجتماعى والسياسى الداخلى والخارجى الذى يجرى طرحها فيه؛ إذ تأتى موجة الجدل الأخيرة فى سياق

ضغوط خارجية تحمل الخطاب الدينى القسط الأكبر من المسئولية عن التخلف، وعدم الاستقرار، واستمرار الاستبداد والعنف.

وإلى جانب أهمية تحليل رؤى واتجاهات صانعى الخطاب الدينى ومنتجيه؛ من مفكرين ومؤسسات وتيارات فكرية وثقافية؛ فإن من المهم أيضًا معرفة وتحليل رؤى وتصورات الجمهور المستهدف من هذا الخطاب؛ وهو الجمهور الذى يشمل قطاعات واسعة من المواطنين، والذى يُطالب فى الوقت ذاته بالاستجابة لهذا النمط أو ذاك من أنماط الخطاب الدينى؛ تحقيقًا للتغيير المجتمعى والسياسى المطلوب من الجهود الرامية إلى التجديد، ونظرًا إلى أن الأغلبية الكبيرة من هذا الجمهور العام لا تتاح لها وسيلة منظمة من تلك الوسائل التى تتاح عادة للنخب؛ كى تعبر من خلالها عن رأيها عامة، وفى موضوع تجديد الخطاب الدينى خاصة، يصبح من الضرورى استطلاع رأى الجمهور العام فى المسائل المتعلقة بهذا الموضوع، وعلى وجه التحديد رأيه فيما يجب تجديده أو المحافظة عليه فى الخطاب الدينى فى الواقع الاجتماعى المعاصر.

والهدف من هذه الدراسة -فى ضوء ما سبق- هو استكشاف آراء عينة من الجمهور العام بشأن القضايا المتعلقة بتجديد الخطاب الدينى، وبيان المعالم الرئيسية للوعى بأبعاد هذا الموضوع لدى الجمهور العام؛ بدءًا بكيفية إدراك الجمهور العام لمفهوم «الخطاب الدينى»، مرورًا بمعنى التجديد المقصود وخصائص الخطاب السائد، وصولاً إلى آليات التجديد ووسائله -كما يتصورها الجمهور العام-، وذلك بعيدًا عن الرؤى النظرية المجردة التى تطرحها النخب الفكرية والثقافية على اختلاف توجهاتها، وتعدد مرجعياتها المعرفية.

وقد اخترنا المقابلة المتعمقة الحرة أداة للحصول على آراء عينة الدراسة، التى بلغ إجمالى عدد أفرادها ١٥ فردًا. وقمنا باختيار العينة بطريقة عمدية من بعض محافظات الوجهين البحرى (٥ أفراد)، والقبلى (٧ أفراد) ومن القاهرة الكبرى (٣ أفراد)، مع مراعاة تمثيل المسيحيين (بفردين)، وتمثيل الرجال والنساء الذين تتباين مؤهلاتهم التعليمية بين أمىٍّ، وجامعى، وتتراوح أعمارهم بين ١٧ و٥٩ سنة، ومن أصحاب المهن المختلفة (نجار. سائق. مزارع. تاجر. صاحب عمل. طالب. موظف. بقال. عامل. ربة منزل).

وتضمن دليل المقابلة المتعمقة الحرة أربعة محاور رئيسية صغناها بالعامية، وهذه المحاور هى:

١. مفهوم الخطاب الدينى.

٢. خصائص الخطاب الدينى السائد.

٣. قضايا التجديد وموضوعاته الرئيسية.

٤. آليات التجديد ووسائله.

وإضافة إلى التساؤلات الفرعية التى تضمنها الدليل تحت كل محور من تلك المحاور، أتاحت المقابلة -المتعمقة الحرة- الاستطراد مع المبحوثين فى تساؤلات فرعية أخرى طلبًا لمزيد من البيان، والتحديد- لبعض المسائل التى يثيرها موضوع تجديد الخطاب الدينى، وذلك فى ضوء افتراضاتٍ أربعةٍ انطلقنا منها فى صوغ الدليل، وفى طرح الأسئلة ميدانيًا، وهى كالآتى:

١- أن وعى الجمهور العام بقضية تجديد الخطاب الدينى منخفض، وغير محدد بشكل واضح.

٢- أن الجمهور العام يميل إلى عدم الرضا عن الخطاب الدينى السائد.

٣- أن الجمهور العام يعول على القنوات الرسمية -أكثر من غيرها- من أجل تجديد الخطاب الدينى.

٤- أن الجمهور العام يميل إلى أن يكون التجديد منصبًّا على الجوانب المتعلقة بالمعاملات والعادات بدرجة أكبر من الجوانب الخاصة بالعبادات، فضلاً عن أنه يسقط من حساب التجديد القضايا السياسية، وكل ما يتعلق بشئون الحكم والسلطة.

وبعيدًا عن الجوانب الفنية والإجراءات المنهجية للمقابلات المتعمقة التى أجريناها مع عدد محدود جدًّا من عموم المصريين، فقد كانت المقابلات فرصة لممارسة نوع مختلف من القراءة؛ هى القراءة فى وجوه البشر، وليس فى صفحات الكتب، والتأمل فى تعبيرات الوجوه التى تنبض بالحياة، لا فى جماليات النصوص المنمَّقة على سطور الأوراق. وكانت فرصة كذلك لممارسة نوع مختلف من الاستماع؛ إنه الاستماع إلى الصمت عندما كان المصرى الذى قابلناه يمسك عن الكلام المباح، ويلوذ بنوع من الصمت هو أكثر بلاغة، وأعلى صوتًا من النطق. وكانت متعة القراءة فى الوجوه والاستماع إلى الصمت أكبر بكثير من متعة القراءة فى الأوراق، والإنصات إلى الكلمات المنطوقة بعناية أو المختارة بدقة.

وبعد أن انتهينا من القراءة والاستماع: زاد اقتناعنا بأن الحاجة ماسة للمضى فى تطوير هذه المنهجية الميدانية للوصول إلى فهم أفضل للظواهر الاجتماعية، وإلى توصيف أكثر دقة للمشكلات والهموم اليومية التى يعيشها الإنسان المصرى المعاصر، وهى مشكلات نادرًا ما يشعر بها غير الذى يكابدها. وما لم نتمكن من إتقان هذا النمط من القراءة والاستماع، ستظل الفجوة كبيرة بين « البحث العلمى » والحقيقة الاجتماعية. وكم كان محمد على باشا حصيفًا عندما سُئِلَ عن الكتب التى قرأها واستلهم منها مشروعه الضخم الذى وضع به أسس النهضة المصرية الحديثة، فقال: « الكتب الوحيدة التى قرأتها هى وجوه المصريين، ونادرًا ما أخطأت فيها ». وهذا هو عين ما يجب أن تدركه اليوم الجماعة العلمية المصرية عامة، والمشتغلون بالعلوم الاجتماعية والسياسية خاصة.

وفيما يلى نقدم نتائج المقابلات المتعمقة من خلال المحاور الأربعة السابق ذكرها.

أولاً: مفهوم الخطاب الدينى فى إدراك الجمهور العام:

لا يستعمل الجمهور العام فى لغته اليومية تعبير « الخطاب الدينى »، ويكاد يقتصر استعمال هذا المفهوم على النخب الفكرية والثقافية والإعلامية دون اتفاق فيما بين تلك النخب على مدلول محدد، أو معنى واحد، أو تعريف جامع مانع لما هو المقصود بالخطاب الدينى. وقد تكون حداثة استعمال هذا التعبير هى سبب حضوره فى كلام النخبة، وغيابه عن كلام الجمهور العام؛ فضلاً عن أن سبب الغياب قد يرجع إلى غموض هذا المفهوم وما يثيره من مشكلات وحساسيات عندما يرتبط بالتجديد. وأيًّا كانت الأسباب؛ فإن غياب مفهوم الخطاب الدينى من القاموس اللغوى لا يعنى بالضرورة عدم الوعى به وبحقله الدلالى العام، ومن ثم فإن ما يهمنا هو معرفة كيف يدرك الجمهور العام المعنى المقصود بتعبير الخطاب الدينى؟ ومن أجل التوصل إلى ذلك؛ تركزت أسئلة المحور الأول من دليل المقابلة المتعمقة على الجوانب التى يمكن من خلالها الكشف عن ملامح هذا التعبير كما يدركه الجمهور العام. وقد بدأنا هذا الجزء بالسؤال عن « مرجعية الخطاب الدينى » كما يدركها المبحوث، وما أساس التفرقة لديه بين ما يعتبره خطابًا دينيًّا، وما لا يعتبره كذلك؟ ثم انتقلنا إلى سؤاله عن أهم موضوعات الخطاب الدينى الذى يصل إليه، وما الجهات أو الهيئات التى يجب أن تتولى عملية إنتاج الخطاب الدينى؟ ثم كيف يمكنه معرفة الخطاب الدينى وتمييزه عن غيره؟ وكان

السؤال الأخير عن الخبرة الذاتية للمبحوث فى الاهتمام بموضوعات الدين والقضايا التى تندرج تحت تعبير «الخطاب الدينى»؛ وذلك حتى نتمكن من تقييم آراء المبحوث وأفكاره التى نطق بها فى المقابلة التى أجريت معه. وبتحليل الاستجابات التى أدلى بها المبحوثون تبين الآتى:

١- معيار الخطاب الدينى ومرجعيته:

قبل أن نعرض النتائج نشير بإيجاز: إلى أن البحوث والدراسات المعنية بقضايا الخطاب الدينى تتضمن تعريفات متعددة لهذا المفهوم. وتنقسم التعريفات السائدة فى تلك البحوث والدراسات إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية هى:

أ- اتجاه يجعله مرادفًا لمفهوم «المنهج»، أو «الدعوة»[١]، ويشير المفهوم -وفقًا لذلك إلى مجالين هما: مجال الدعوة: بمعنى الدين الموحى به؛ بأركانه وحقائقه الثابتة ومبادئه وتعاليمه المسجلة فى النصوص المنزلة؛ فالخطاب الدينى- وفقًا لرؤية هذا الاتجاه - هو الخطاب الإلهى متمثلاً فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة بالنسبة للدين الإسلامى، وفى الإنجيل وتعاليم السيد -المسيح عليه السلام- بالنسبة للدين المسيحى، والمجال الثانى هو مجال الدعوة: بمعنى الفعل البشرى الهادف إلى التبليغ ونشر تعاليم الدين، ودعوة الناس إلى الالتزام بأحكامه وتشريعاته. وهنا يكون المقصود بالخطاب الدينى: هو حصيلة الفهم البشرى من الدين المنزَّل، وما يقوم به البشر المؤمنون به من جهد لنشر هذا الفهم ووضعه موضع التطبيق.

ب- اتجاه يرى: أن الخطاب الدينى: يكاد يكون مرادفًا فقط للفكر الدينى[٢] الذى يتجلى فى أقوال وأفعال ومواقف القائلين به أو الداعين إليه. وبهذا المعنى؛ فإن الخطاب الدينى يشمل من الناحية الإجرائية «الأقوال والنصوص المكتوبة التى تصدر عن المؤسسات الدينية أو عن رجال الدين، أو التى تصدر عن موقف أيديولوچى ذى صبغة دينية أو عقائدية، أو الذى يدافع عن عقيدة معينة ويعمل على نشر هذه العقيدة»[٣]. ولا يلتفت أنصار هذا الاتجاه إلى المعنى الأصولى للخطاب الدينى الذى يشير إلى الأصول المنزلة قطعية الثبوت، أو تلك التى لا تتغير نصوصها بتغير الزمان والمكان؛ وإن تغير فهمها وتباينت دلالاتها.

ج- اتجاه ثالث: يرى أنصاره أن الفرق بين النص الإلهى كمضمون للخطاب الدينى والفهم البشرى، أصبح ضئيلاً جدًّا فى الواقع العملى؛ بحيث لم يعد من السهل تمييز ما هو ثابت

من أصول الدين المنزل، وما هو متغير من أفهام واجتهادات البشر. ويذهب بعض أنصار هذا الاتجاه إلى أبعد من ذلك؛ فيرى أن ثمة رواسب وثنية قد تسربت من العصور السابقة على نزول الأديان السماوية، وأضحت تدريجيًّا جزءًا من بنية الدين الذى يعتقده الناس « فلم يعد سهلاً التفرقة بين الدين الحق، وبين ما أدمج فيه من رواسب وثنية »[٤]. ويذهب البعض الآخر من أنصار هذا الاتجاه أيضًا إلى أن الخطاب الدينى المنزل ليس له وجود مستقل قائم بذاته خارج التأويل البشرى، وأن النص القرآنى -مثلاً- ليس مرجعية فى ذاته، وإنما مرجعيته مستمدة من قدرة العقل على تأويله؛ أى أن العقل هو مرجعية النص وليس العكس[٥].

ودون الدخول فى المجادلات النظرية حول اتجاهات التعريف بالخطاب الدينى، فإن الذى يهمنا هنا هو أن نتبين إدراك الجمهور العام للمقصود بهذا الخطاب، ثم ننظر -بعد ذلك- فى مدى اقتراب أو ابتعاد هذا الإدراك عن الاتجاهات النظرية السابق ذكرها.

وتجدر الإشارة هنا قبل الاستطراد فى عرض النتائج وتحليلها أن كلمة « الخطاب » تحمل دلالات سلبية فى جميع السياقات التى استعملت فيها فى القرآن الكريم، ويستخلص د. سيد دسوقى حسن[٦] أن هذه السياقات تشير إلى: أن الخطاب فى القرآن يعنى المحاججة بدون وجه حق، أو الرجاء غير المبرر، أو الكلام المختلط المضطرب، قال الله (تعالى) لنوح ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾[سورة المؤمنون: آية ٢٧]. والخطاب هنا رجاء ورغبة عاطفية أن لا يعاقب الله هؤلاء بالغرق، وهى رغبة مرفوضة ورجاء غير مستجاب. وأحد المتخاصمين عند داود -عليه السلام- يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾[سورة ص: الآية ٢٣]، وعزنى: أى غلبنى ظلمًا فى الحجاج. والله (تعالى) يقول فى صفات عباد الرحمن ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[سورة الفرقان: الآية ٦٣]، فحديث الجاهلين لعباد الرحمن سمى خطابًا لاضطرابه، واختلاط معانيه؛ ولذا طالبهم ربهم أن يقولوا كلامًا ويختاروا ردودًا تؤدى إلى السلام. والله (تعالى) يتحدث عن داود فيقول﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠]. ويعلق الرازى على هذه الآية فيقول: فصل الخطاب يعنى كونه قادرًا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر فى الخيال؛ بحيث لا يختلط شىء بشىء؛ وبحيث ينفصل كل مقام عن الآخر. ومعنى ذلك قدرته على تهذيب الخطاب بفصل أجزائه بعضها عن

بعض. وفى سورة النبأ يقول الله (تعالى): ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ﴾ [سورة النبأ: الآية ٣٧]؛ أى لا يستطيع العباد أن يسائلوا ربهم أسبابًا لأقداره التى يجريها عليهم، أو سننه التى يمضيها فيهم، وفى الكون ومن حولهم. وقد تكون تلك المعانى غير الإيجابية التى تشير إليها كلمة الخطاب فى كل مواضع ورودها فى القرآن الكريم هى سبب عدم شيوعها فى الاستخدام العربى، وعدم الترحيب باستخدامها، بعد أن شاعت فى الكتابات الأجنبية.

وأيًّا كان الأمر؛ فإن من المهم فى البداية اكتشاف الأساس أو المعيار الذى يتخذه أفراد العينة -محل هذا البحث- لتمييز الخطاب الدينى عن غيره من الخطابات التى يمكن اعتبارها غير دينية، وكيف يدركون المقصود بهذا المفهوم. وكان السؤال الأول هو: هل يختلف الكلام فى الدين عن الكلام فى موضوعات أخرى؟ وتبين لنا من الاستجابات أن معيار الخطاب الدينى -فى إدراك عينة البحث- يشير إلى واحد من المعانى الآتية:

أ- هو الكلام المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، إنه الفهم البشرى للنصوص الإلهية المنزلة. معيار الخطاب الدينى الإسلامى إذن: هو أن مرجعيته تتمثل فى القرآن والسُّنة.. يقول أحد المبحوثين (موظف، ٣٠سنة، من القاهرة) إن «الكلام فى الدين يكون من خلال القرآن الكريم، أو الأحاديث الشريفة». وقالت أخرى (ربة منزل، ٢٥ سنة من القاهرة) «وأنا بتكلم عن الدين أكون ماشية على القرآن أو السُّنة، ما ينفعش أفتى أو أبدى رأيى بدون علم». ومن الواضح هنا: أن العلم المقصود هو العلم بالكتاب والسُّنة، وصوغ الرأى أو الفتوى أو مجرد الكلام فى ضوئهما.

وبهذا المعنى يميز فريق من المبحوثين بين الخطاب الدينى المنزَّل، والخطاب الدينى الذى يمارسه البشر من خلال فهمهم المستند إلى النصوص المنزلة، ويرون أن خصوصية الخطاب الدينى ومعياره الذى يميزه عن غيره، هو فى تلك المرجعية المحددة فى القرآن والسُّنة الصحيحة بالنسبة للدين الإسلامى.

ب- الخطاب الدينى عبارة عن رؤية شاملة للحياة بمختلف مجالاتها ومشكلاتها، مرجعيتها، الأصول المنزلة؛ أى أن معياره الإجرائى هو الشمول والإحاطة، فما كان كذلك فهو خطاب دينى إسلامى تحديدًا، وما كان جزئيًّا أو مقتصرًا على جانب دون آخر؛ فهو ليس

بخطاب دينى، حسب آراء مجموعة من المبحوثين الذين عبروا عن ذلك بصيغ مختلفة، ومنها قول أحدهم (صاحب مصنع حلوى، ٥٠سنة، طنطا/غربية) « مفيش اختلاف بين الكلام فى الدين والكلام فى غيره؛ لأن الدين شامل كل حاجة فى الحياة؛ لإن الإسلام والقرآن لم يغادرا كبيرة أو صغيرة إلا تحدث عنها، والسُّنة أوضحت ده بشكل أكبر»، ومن الواضح أنه يقصد أن الدين يقدم رؤية شاملة لكل جوانب الحياة، وأنه ما من مسألة إلا ويمكن معالجتها من منظور الدين، وهذا الذى قصده بقوله « مفيش اختلاف بين الكلام فى الدين والكلام فى غيره »، ولم يقصد عدم وجود فرق بين الخطاب المستند إلى مرجعية دينية، وغير المستند إليها.

وبتحليل استجابات عدد من المبحوثين الذين جاءت آراؤهم متقاربة بشأن اعتبار الخطاب الدينى « رؤية شاملة للحياة »، تبين لنا أنهم ينظرون نظرة وظيفية إلى مضمون الخطاب الدينى، دون أن يكون لديهم إدراك واضح للفرق بين الدين بمعنى الأصول المنزلة، والفهم البشرى للتعاليم والتوجيهات والتشريعات التى جاءت بها تلك الأصول.

ج- الخطاب الدينى هو ما كان أساسه القرآن الكريم والسُّنة، وهو -فى إدراك بعض أفراد العينة- عبارة عن دعوة للخير، ومعياره الحث على فضائل الأخلاق وتزكية النفس البشرية، وما كان خارجًا عن هذا الإطار، فليس من الدين فى شىء. قال أحدهم (تاجر، ٤٣سنة، دمياط) إن « مواضيع الدنيا كلها مواضيع بعيدة عن الدين؛ زى الكلام عن العيال، والعمل، والبيوت، والمصاريف، والمشاكل فى الشغل ». وقال آخر(سائق، ٤١سنة، الإسكندرية) « فيه واحد لما تكلمه فى الدين يهرب لأى موضوع تانى؛ لأن صلته باللّٰه قليلة، فيه حد تانى تكلمه بأقل كلام فى الدين يبكى، وعايز يستفيد من القرآن والأحاديث ».

ومثل هذا الإدراك لمعنى الخطاب الدينى، وجدناه لدى بعض مفردات العينة من المسيحيين، قال أحدهم (عامل بناء، ٣١سنة، قرية ونينة الغربية/محافظة سوهاج)، « الكلام فى الدين بيحث على التسامح والمحبة... يختلف عن السياسة والاقتصاد والمعايش، الكلام فيها سكة، والكلام فى الدين سكة تانية ». وقال آخر (مزارع، ٤٤سنة، مدينة سوهاج)، « الكلام فى الدين موقر، ولازم اللى بيتكلم فى الدين يكون مبعوث من الكنيسة ».

ونلاحظ أن بعض معانى الخطاب الدينى -التى عبرت عنها عينة البحث- تتفق مع بعض التعريفات النظرية السابق ذكرها، وبعضها الآخر لا يتفق معها. فالذين عبروا عن فهمهم

للخطاب الدينى بأنه يعنى الكلام المستند إلى القرآن الكريم والسُّنة الصحيحة، وكذلك الذين رأوا أنه عبارة عن رؤية شاملة للحياة وقضاياها ومشكلاتها، هؤلاء وأولئك يقتربون من الاتجاه النظرى الأول فى تعريف الخطاب، وهو الاتجاه الذى يجعله مرادفًا للمنهج أو الدعوة؛ بمعنى الفعل البشرى الهادف إلى التبليغ ونشر تعاليم الدين ودعوة الناس إلى الالتزام بأحكامه وتشريعاته. أما الذين ذهبوا إلى أن الخطاب الدينى عبارة عن دعوة للخير والفضائل الأخلاقية والسلوكية، فلا نجد تعريفًا نظريًّا من التعريفات السائدة للخطاب الدينى يمكن أن يندرج فهمهم هذا فى إطاره.

وفى الوقت عينه، لا نجد بين إدراكات العينة ما يتفق أو يقترب مع تعريف الخطاب الدينى -حسب رؤية الاتجاه الثالث- الذى يؤكد على أن الفرق بين النص الإلهى للخطاب الدينى والفهم البشرى له ضئيل جدًّا، وأن الخطاب الدينى المنزل ليس له وجود مستقل قائم بذاته خارج التأويل البشرى، وأن النص القرآنى -مثلاً- ليس مرجعية فى ذاته، وإنما مرجعيته مستمدة من قدرة العقل على تأويله.

مثل هذا الإدراك لم نجد ما يشير إلى وجوده فى وعى الجمهور العام، فى حدود ما كشفت عنه آراء عينة هذا البحث.

وإضافة إلى الأنماط الثلاثة لإدراك معنى الخطاب الدينى لدى عينة البحث من الجمهور العام، أوضحت الاستجابات أن ثمة اتفاقًا بين أغلبية مفردات العينة على أن الخطاب الدينى -أو الكلام فى الدين- يتطلب دراية وعلمًا وتخصصًا، وأن ثمة أسبابًا متعددة تفترض توافر هذه الشروط، ومن أهمها أن الخطاب الدينى يتعلق بالفعل والترك، وبالحلال والحرام. وذهب البعض إلى أن من يتكلم فى أمور الدين يجب أن يكون معتمدًا من جهة رسمية -كالأزهر أو وزارة الأوقاف، مثلاً- أو الكنيسة بالنسبة للمسيحيين.

٢- موضوعات الخطاب ومنتجوه:

إذا كان الجمهور العام يدرك الخطاب الدينى باعتباره إما رؤية شاملة للحياة، أو فهمًا بشريًّا للأصول المنزلة، أو دعوة للخير والفضيلة؛ وذلك فى حدود ما عبرت عنه عينة هذا البحث كما أسلفنا؛ فإن السؤال المهم هنا هو: ما الذى ينبغى أن يتناوله الخطاب الدينى؟ ومن هم المؤهلون لتناول هذه الموضوعات؟

وجهنا عدة أسئلة لأفراد العينة حول موضوعات الخطاب ومنتجيه -سواء من الجهات أو الهيئات أو الشخصيات- وبتحليل استجاباتهم وربطها بمضمون إدراكهم لمعنى الخطاب الدينى اتضح الآتى:

أ- أن الذين يدركون الخطاب الدينى -باعتباره رؤية شاملة للحياة-، يرون أن موضوعات هذا الخطاب يجب أن تشتمل أساسًا على: مسائل الأحوال الشخصية، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق والسلوك، والعقائد، والقضايا التى تستجد فى الحياة اليومية للناس. وتتسق شمولية الموضوعات التى يتصورونها للخطاب الدينى مع إدراكهم لهذا الخطاب على أنه يقدم رؤية شاملة للحياة. وكمثال على ذلك ما قاله أحدهم (تاجر، ٥٩سنة، مدينة سوهاج) الكلام فى الدين يعنى: « موضوعات عن الزوجية... الحديث فى الحلال والحرام، وإننا مَنْأَكِّلْش عيالنا حرام، ولا نكسب إلا من عرق جبينا، وإذا مشغل عندى حد لازم أعطيه أجره، ومانكلش حق حد، لو عرفنا الحلال والحرام يبقى عرفنا الدين... تربية العيال وتعليمهم الصلاة والصوم، ونعلمهم إزاى يحترموا الكبير، ويطيعوا الوالدين ده كلام فى الدين، ننصح بعضنا فى مجالسنا بلاش نجيب سيرة حد بالنميمة، الكلام فى الفقه وسيرة الرسول(ص) والزكاة والصوم والحج ومعاملة الجار كل ده كلام فى الدين ».

وليس شرطًا ضروريًّا فيمن يتصدون للخطاب الدينى -من وجهة نظر الذين يدركونه كرؤية شاملة للحياة- أن يكونوا من ذوى التخصص الرسمى، أو أن يقتصر الأمر على علماء الأزهر فقط، وإنما يكفى أن يكونوا متفقهين، وعلى دراية وفهم لأمور الدين والدنيا، وأن يكونوا أهل ثقة وقدوة حسنة فى ذاتهم حتى يكون خطابهم مقبولاً ومؤثرًا، وأن تكون لديهم القدرة على توصيل الرسالة بيسر وسهولة.. يقول أحد المبحوثين: (صاحب مصنع حلوى، ٥٠سنة، طنطا): « عمرو خالد مش مفتى، لكن بيوصل المفهوم الصحيح للناس، الأشخاص زى عمرو خالد، ومفتى الديار، وكل خريجى الأزهر، وأحمد عمر هاشم لازم يكون لهم دور فى إصلاح المجتمع ».

ب- الذين يدركون الخطاب الدينى باعتباره فهمًا بشريًّا للأصول المنزلة، أو أنه كل خطاب يستند إلى مرجعية القرآن الكريم والسُّنة، يرون أن موضوعات هذا الخطاب تشتمل بالدرجة الأولى على أمور المعاملات، والعبادات، والأحوال الشخصية، والأخلاق، والسلوكيات الاجتماعية.. قالت إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٢٥سنة، القاهرة): « الكلام عن العمل وإنه

عبادة... وعن المال والزكاة... وعن التعامل مع الناس... وعن الصلاة والصوم... وعن تربية الأولاد، وعن الملابس وضرورة أن تكون محتشمة... ده يعتبر كلام فى الدين ». ونلاحظ أن مضمون هذه الموضوعات لا يختلف كثيرًا عن الموضوعات التى أدرجها أصحاب وجهة النظر السابقة، وإن كانت أضيق منها نطاقًا وأقل شمولاً.

وحسب رأى هذا الفريق؛ فإن الذين يحق لهم إنتاج الخطاب الدينى هم المتخصصون تخصصًا رسميًّا فقط؛ أى الحائزون على شهادات علمية رسمية فى العلوم الشرعية من الأزهر مثلاً. وعبر أحد المبحوثين (موظف، ٣٠سنة، الجيزة/القاهرة الكبرى) بقوله: « طبعًا العلماء المسلمين والمفتين فى الدين لابد أن يكونوا دارسين شريعة وفقه وسنة... حاليًا أقدر أقول لك أنه لا توجد جهات معينة يقدر الواحد يعتمد على آرائها فى مصر، مفيش هيئة علماء مسلمين آراؤهم موحدة تحل مشاكل المسلمين. مع احترامى للأزهر وعلماء الأزهر؛ لكن فين الأزهر من مشاكل المسلمين ». وأكد على ذلك مبحوث آخر (عامل، ٥٦ سنة، قرية الحجانية/ دمنهور - بحيرة) فقال « طبعًا ما ينفعش أى حد يتكلم فى الدين، لازم الوعاظ هم اللى يتكلموا، وخريجوا الأزهر، وإمام الجامع، وأهل الذكر، والمفتى، والأزهر الشريف ».

ويتسق شرط التخصص العلمى للحديث فى الشأن الدينى -حسب رأى هذا الفريق- مع نمط إدراكه لمفهوم الخطاب الدينى بأنه عبارة عن فهم الأصول المنزلة. ولكن يبدو أن ثمة قصورًا لدى هؤلاء المبحوثين فى المعرفة بوجود جهات رسمية من العلماء المتخصصين مهمتهم البحث وإبداء رأى الدين فى القضايا والمشكلات المختلفة، مثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومجمع البحوث الإسلامية، ومن جهة أخرى: يبدو أيضًا أن مثل هذه الجهات لم تنجح فى إبلاغ رسالتها إلى عموم الناس، إلى حد عدم المعرفة ولو فقط باسمها.

ج- بالنسبة للفريق الذى يدرك الخطاب الدينى باعتباره « دعوة للخير وفضائل الأخلاق »، وجدنا أن جميع الأفراد -الذين قالوا بهذا الرأى- متفقون على أن أهم موضوع يجب أن يشتمل عليه الخطاب الدينى هو « الأخلاق والدعوة لتقويم السلوك »، إلى جانب موضوعات أخرى مثل العبادات، والمعاملات (من منظور أخلاقى أيضًا)، ومسائل الأحوال الشخصية. أحد المبحوثين (موظف قطاع خاص، ٢٦سنة، مدينة سوهاج) قال فى سياق حديثه عن موضوعات الخطاب الدينى إنها تعنى بالنسبة له: « صلة الرحم، وإزاى نعامل أخواتنا

وأعمامنا، وأقاربنا ده كلام فى الدين، وتربية الأطفال على قال الله وقال الرسول وإكسابهم الأخلاقيات من الصغر، وتعليمهم الصلاة والصوم، ده كلام فى الدين، واحترام الكبير وتوقيره أوصانا به الرسول ﷺ».

والملفت للنظر أن حوالى نصف العينة (٨ أفراد - منهم اثنان مسيحيان - من ١٥فردًا هم إجمالى العينة) قد انحاز لهذا الرأى الذى يدرك الخطاب الدينى من زاوية أخلاقية. وحتى إذا استبعدنا الصوتين المسيحيين، يظل عدد المؤيدين لهذا الرأى هو الأكبر مقارنة بعدد مؤيدى الرأى الأول (٤ أفراد)، ومؤيدى الرأى الثانى (٣ أفراد).

ونستشف من ذلك أن بعض أفراد الجمهور العام يشعرون أن المجتمع يعانى من أزمة فى الأخلاق، وأن إحدى مشكلات الخطاب الإسلامى تتجلَّى فى كثير من الانحرافات السلوكية، ومن ثم فهو خطاب عاجز عن معالجة هذه الأزمة.

أما من ذا الذى يحق له المشاركة فى إنتاج الخطاب الدينى -حسب رأى أغلبية هذا الفريق- فهم المتفقهون فى الدين، والحائزون للقدرة على مخاطبة الناس على قدر عقولهم فى سهولة ويسر، ولا يشترط أن يكونوا حائزين لشهادات علمية رسمية، أو أن يكونوا من خريجى الأزهر ومعاهده الدينية؛ بل إن بعض المبحوثين ذهبوا إلى أن التخصص: يعنى التعقيد فى الأسلوب، وعدم القدرة على التواصل مع الجمهور المتلقى للخطاب. قالت إحدى المبحوثات (١٧ سنة، طالبة، مدينة سوهاج): «مفروض كل اللى عارف فى الدين يتكلم، أنا عندى مُدرسة الإنجليزى بتتكلم فى الدين أحسن من مدرسة الدين نفسها... ممكن يكون فيه متخصصين؛ لكن دول بيتكلموا كلام كبير، فيه ناس بسيطة متقدرش تفهم الكلام بتاعهم».

ولكن من بين الذين يدركون الخطاب الدينى من زاوية أخلاقية هناك من يرى أن الذى يشارك فى إنتاج هذا الخطاب يجب أن يكون متخصصًا حاملاً لشهادة علمية فى العلوم الشرعية. قالت إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٥٣سنة، الجيزة - القاهرة الكبرى): «لازم اللى يتكلم فى الدين يكون فاهم ومتخصص، ويتبع الأزهر؛ لأن الأزهر هو نبع العلم».

أما المبحوثان المسيحيان: فلم يتصورا إمكانية أن يشارك فى إنتاج الخطاب الدينى أحد من خارج الكنيسة أو المطرانية، قال أحدهما (فلاح حاليًا وموظف سابقًا، ٤٤سنة، مدينة سوهاج): «الأشخاص اللى يجب أن يقتصر عليهم الكلام فى الدين هم الرهبان، والقسيسين،

والشمامسة، والخدام اللى ورا الكاهن، ومن هم وراء القسيسين وزيهم أبيض... والجهات اللى مفروض بيقتصر عليها الكلام هى الكنيسة والمطرانية، زى مطرانية سوهاج، والكاتدرائية فى العباسية ترأس الجمهورية بالكامل من حيث الفتاوى فى الأمور المسيحية». وقال الآخر(عامل، ٣١سنة، قرية ونينة الغربية - سوهاج): «الكلام فى الدين يقتصر على رجال الكنيسة، ولازم يكون المتكلم متخصص ويتكلم من خلال الكنيسة، أو من خلال المطرانية». ويتفق مثل هذا التوجه مع الطبيعة الخاصة للخطاب الدينى المسيحى، وشدة ارتباطه بالبنية الهيراركية داخل النظام الكنسى.

وللكشف عن عمق إدراك أفراد العينة لأهمية التخصص الرسمى كشرط للمشاركة فى إنتاج الخطاب الدينى من عدمه، قمنا بتحليل موضوعات الخطاب الدينى من وجهة نظرهم فى ضوء موقفهم من اشتراط أو عدم اشتراط التخصص الرسمى فى علوم الدين والشريعة. والجدول التالى يوضح تكرارات كل موضوع فى استجابات أفراد العينة، وتكرار اشتراط التخصص، وتكرار عدم اشتراط التخصص كمؤهل للمشاركة فى إنتاج الخطاب الدينى.

جدول رقم (١)

موضوعات الخطاب الدينى وعلاقتها بشرط التخصص الرسمى لمنتجيه

موضوع الخطاب	تكرار وروده	عدد الذين يشترطون التخصص	عدد الذين لا يشترط التخصص
عبادات	١٠	٤	١١
عقائد	١	-	١
أخلاق وسلوك	١٢	٥	١٠
أحوال شخصية	١٠	٦	٩
معاملات	٧	٤	١١
مشكلات سياسية	٣	٢	١٣

ومن بين العلاقات التى يوضحها الجدول السابق، نلاحظ أن موضوع الأحوال الشخصية هو أكثر الموضوعات احتياجًا للتخصص العلمى الرسمى لمن يشارك فى الحديث عنه -من وجهة نظر أفراد عينة البحث- مقارنة بالموضوعات الأخرى المدرجة فى الجدول، ولكن أغلبية المبحوثين (٩ أفراد) لا يرون أن شرط التخصص الرسمى ضرورى لهذا الموضوع، ويكفى فى رأيهم أن يكون المتحدث متفقهًا وفاهمًا وقادرًا على إيصال رسالته بأسلوب بسيط وواضح. وكذلك يمكن القول بالنسبة لبقية الموضوعات، حيث نلاحظ أن عدد الذين لا يشترطون التخصص الرسمى للمشاركة فى إنتاج الخطاب الدينى أكبر من عدد الذين يشترطونه، وينطبق هذا فقط على الخطاب الدينى الإسلامى. أما بالنسبة للخطاب المسيحى، فقد سبقت الإشارة إلى أن التخصص والاندراج فى السلك الكهنوتى الكنسى شرطان ضروريان ولازمان فيمن يحق له المشاركة فى إنتاج الخطاب الدينى بحسب رأى المبحوثين المسيحيين.

ثانيًا: خصائص الخطاب الدينى السائد:

المقصود بالخطاب الدينى السائد فى هذا السياق: هو ذلك الخطاب الذى يحظى بالذيوع والانتشار على نطاق جماهيرى واسع؛ سواء كان صادرًا عن شخصيات أو جهات رسمية، مثل شيخ الأزهر أو المفتى أو دار الإفتاء، أو مجمع البحوث الإسلامية، أو بابا الكنيسة والقس بالنسبة للمسيحيين، أو كان صادرًا عن شخصيات وجهات غير رسمية مثل بعض الدعاة غير الرسميين من خريجى الأزهر أو من غير خريجيه، ومن خريجى المعاهد الدينية أو من غير خريجيها، أو بعض الجمعيات والجماعات المعنية بشئون الدعوة والثقافة الإسلامية. وقد تركزت أسئلة المحور الثانى من دليل المقابلة المتعمقة على الجوانب التى تسهم فى الكشف عن خصائص الخطاب الدينى السائد كما يدركها أفراد عينة البحث.

وبتحليل استجابات عينة البحث -فيما يتعلق بأسئلة هذا المحور- اتضح لنا أن الخطاب الدينى السائد بالمعنى السابق بيانه يتراوح بين ثلاثة أزواج من الخصائص هى:

أ- الوضوح والسهولة واليسر والبساطة من جهة، والغموض والتعقيد والتركيب من جهة أخرى.

ب- الواقعية والارتباط بقضايا الحياة ومشكلات الناس من جهة، والانعزالية والانفصال عن قضايا الحياة ومشكلات الناس من جهة أخرى.

ج- التأثير والإسهام فى حل المشكلات وتقديم حلول عملية لها من جهة، وانعدام التأثير والفاعلية فى الواقع الاجتماعى الفردى والجماعى من جهة أخرى.

ولقد كشف لنا تحليل استجابات أفراد عينة البحث -مع ربطها بمضمون إدراكهم لمعنى الخطاب الدينى- عن نتائج مهمة نجملها فى الآتى:

١- الخطاب غير الرسمى أكثر وضوحاً من الرسمى:

أفاد أغلب المبحوثين: بأن الخطاب الدينى الإسلامى السائد فى شقه غير الرسمى أكثر وضوحًا من الخطاب الرسمى، فلغة الأول سهلة، بسيطة، ومعانيه مباشرة وقريبة من الفهم ويمتاز بالجرأة، فى حين لغة الثانى صعبة الفهم، وأسلوبه معقد ومليء « باللف والدوران »، ومركب إلى الدرجة التى تستعصى على إدراك فئات واسعة من الجمهور العام. ويكاد يجمع كل أفراد عينة البحث على أن غير الرسمى أكثر وضوحًا من الرسمى؛ لا يختلف فى ذلك الذين يدركون الخطاب الدينى باعتباره رؤية شاملة للحياة، عن أولئك الذين يدركونه باعتباره فهمًا بشريًا للنصوص المنزلة، ولا عن الذين يدركونه باعتباره دعوة للأخلاق والفضيلة.

ومما يؤكد ذلك ما كشفت عنه استجابات المبحوثين بخصوص العلماء والدعاة الذين يفضلون الاستماع إليهم؛ حيث جاء عمرو خالد فى المرتبة الأولى يليه محمد هداية، والشيخ القرضاوى، ومحمد حسان، وخالد راشد، وعدد آخر من الدعاة المحليين (فى القرى وفى أحياء المدن). ونلاحظ أن أصحاب هذه الأسماء هم من الشباب -فيما عدا الشيخ القرضاوى- يقول أحد المبحوثين (صاحب مصنع حلوى، ٥٠ سنة، طنطا): « عمرو خالد ده كان بيتكلم وأمامه حشد لا يقل عن عشرة آلاف، وأنا مقتنع، والناس مقتنعة بيه... الشخصية دى مفروض مصر تحتضنها مش تخرجها بره مصر، وبعده عن مصر ده شيء غلط ». وقال آخر (عامل، ٥٦ سنة، قرية الحجانية . دمنهور/ بحيرة): « عمرو خالد بيقول كلام بسيط وكويس، الواحد بيفهمه وبيدخل القلب ». وقالت إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٥٣ سنة، الجيزة / القاهرة الكبرى): « عمرو خالد بيقول كلام حلو وسهل وبيعمل حاجات مفيدة للشباب وبيحب الناس... ومحمد هداية بيتكلم بطريقة بلدى، بفهم منه الحديث ».

وبالرغم من تفضيل بعض المبحوثين لبعض العلماء الرسميين أمثال الشيخ الشعراوى، وأحمد عمر هاشم، والشيخ محمد المسير والشيخ عطية صقر؛ إلا أن بعضهم الآخر قد عبر عن

غموض خطاب شخصيات رسمية بارزة مثل شيخ الأزهر ومفتى الديار، وفضلاً عن أن أحدًا من المبحوثين لم يذكر شيخ الأزهر أو المفتى ضمن الشخصيات التى يشعر أن أسلوبها مفهوم وواضح، أكد أكثر من مبحوث على أنه لا يستطيع فهم ما يقوله المفتى، ولا يعرف ما الذى يتحدث عنه، ولا الذى يريد قوله لنا على وجه التحديد، ومن ذلك قول أحدهم (موظف، ٣٠سنة، الإسكندرية): «العلماء أنواع، فيه منهم بيتكلم بأسلوب غير مفهوم زى مفتى الديار المصرية لما بيتكلم فى التليفزيون، من أول الحديث لآخره لا أعرف هو بيتكلم فى إيه، ولا حتى بعرف هو عايز إيه، أنا مش بيعجبنى أسلوبه». وقالت مبحوثة (٥٣سنة، ربة منزل، القاهرة الكبرى): «عندك د. على جمعة مفتى الديار، مفهمش منه حاجة».

وهكذا يبدو من خلال آراء عينة البحث أن الخطاب غير الرسمى يتسم بقدر أكبر من الوضوح بالنسبة للجمهور العام مقارنة بالخطاب الرسمى؛ وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أمرين: **أولهما:** أن الخطاب غير الرسمى غالبًا ما لا يتقيد بالشكليات التقليدية للخطاب الدينى الرسمى، وخاصة من حيث استعمال الأخير لغة عربية فصحى، كثيرًا ما لا تكون مفهومة للعامة، **وثانيهما:** غلبة الطابع العمومى على الخطاب الرسمى، والبعد عن المسائل التفصيلية التى تكون أكثر أهمية لدى الجمهور العام؛ ولهذا نجده يفضل الإنصات لمنتجى الخطاب غير الرسمى وبخاصة أولئك الذين ينتشرون فى القرى والمناطق المحلية، وتكون لديهم دراية بالمشكلات اليومية للناس، ومن ثم تكون لديهم مقدرة أكبر على تناول مشكلاتهم وتقديم حلول قد تسهم فى حلها.

بقيت الإشارة هنا إلى أن الخطاب المسيحى (وهو رسمى بطبيعة الحال)، يتسم فى نظر المبحوثين المسيحيين بالوضوح والسهولة والروحانية. قال أحدهما (عامل بناء، ٣١ سنة، ونينة الغربية - سوهاج): «دايمًا بسمع البابا شنودة، والنفر بيستفاد منيه، أسلوبه حلو بيحببنا فى الدين، وكلامه زين».

٢- الخطاب الرسمى أكثر عزلة عن الواقع من غير الرسمى:

يرى أغلب أفراد عينة البحث أن الخطاب الرسمى السائد يتسم بالغموض والتعقيد وصعوبة الأسلوب مقارنة بالخطاب غير الرسمى، ليس هذا فحسب، وإنما يرون أيضًا أن هذا الخطاب غير واقعى، وأنه أكثر بعدًا من الخطاب غير الرسمى عن مشكلات الحياة الراهنة من جهة، وعن بعض الفئات الاجتماعية التى هى فى أمس الحاجة إليه من جهة أخرى.

أما البعد عن مشكلات الواقع فيتجلى فى عدة مظاهر منها: أنه خطاب مكرر وممل، ولا يأتى بجديد، ويفضل البقاء فى الماضى، أو التحليق فى الخيالات والافتراضات غير الواقعية، وأنه نمطى وتقليدى حتى فى نبرة الصوت (بالنسبة لخطيب الجمعة، أو لمن يلقى حديثًا تلفزيونيًّا)، فى حين أن التطورات الحديثة فى وسائل الاتصال وفنون الإقناع والحوار، كلها تفترض أن يطور العلماء أساليبهم، وأن يربطوا خطابهم بالواقع ومتغيراته، وأن يجعلوا هذا الواقع هو محور تفكيرهم واجتهاداتهم، من أجل البحث عن حلول لمشكلات الناس وقضاياهم الملحة التى يعانون منها.

وقد عبر بعض المبحوثين عن إدراكهم لانفصال الخطاب الرسمى السائد عن الواقع بصيغ مختلفة، منها ما قاله أحدهم (موظف، ٢٣سنة، الإسكندرية): «الشيوخ فى المساجد مش بيفيدوا فى موضوعات هامة بالنسبة للشباب». وقال آخر (سائق، ٤١سنة، الإسكندرية): «ياريت كل واحد يتكلم عن ظروف المنطقة اللى هو فيها، مشاكل الشباب اللى بيحشش، مش بيجى يحكى قصة عن الرسول، مفروض يقول لهم الدين بيقول إيه ويربط مشاكلهم بالدين، وما ينفعش أتكلم عن حاجات بعيدة عن مشاكل الناس، وبعيدة عن حياتهم». وقال ثالث (موظف، ٢٦سنة، مدينة سوهاج) عن العلماء الرسميين: «لا أحب أسمعهم؛ لأنهم مملين زى الشيخ (فلان)، معظم الموضوعات هى هى». ويرى بعض المبحوثين أن اللغة الصعبة التى يستخدمها العلماء تسهم أيضًا فى عزلهم عن الواقع؛ إذ يتم استبعاد فئات اجتماعية واسعة عما يقول هؤلاء العلماء، ومن ثم لا يستطيعون إبلاغ رسالتهم إليهم، ولا تستطيع هذه الفئات التفاعل مع أولئك العلماء، وخاصة فى البرامج الإذاعية أو التلفزيونية المفتوحة للأسئلة. يقول أحدهم (موظف، ٤٢سنة، مدينة سوهاج): «العلماء بتوع الدولة فيهم عيب خطير، عمرهم ما بينزلوا لمستوى المتلقى اللى ممكن يكون فيه عربجى وفلاح وجاهل ومتعلم، لما بيتكلموا بيعتقدوا إن كل اللى قدامهم متعلمين تعليم عالى، ولا يعتمد على التوضيح والتواضع، مع إن ده من سمات العلماء».

ومن الملفت للنظر أن تأكيد بعض المبحوثين على أن الخطاب الرسمى واقعى ورد فى سياق محدد؛ وهو سياق الحديث عن مسائل العبادات والأحوال الشخصية، ووردت الإشارة هنا إلى الشيخ عطية صقر تحديدًا، وما يقوله من فتاوى على الهواء فى برامج تلفزيونية تتناول قضايا ومشكلات فعلية يسأل عنها الجمهور العام.

وبالرغم من أن الخطاب الرسمى تعزله اللغة الصعبة عن الواقع حينًا، ويعزله عدم الاهتمام بالقضايا المهمة والواقعية حينًا آخر؛ إلا أنه بسؤال عينة البحث عن الجهة أو الشخص الذى يثق فيه، ويتوجه إليه عادة بالسؤال عندما تعرض له مشكلة ما، جاءت الاستجابات لتؤكد توجه أغلب المبحوثين إلى العلماء الرسميين، وخاصة أئمة المساجد ودار الإفتاء. ما يفسر هذا التناقض بين الشعور بعزلة الخطاب الرسمى، واللجوء إلى بعض منتجيه عند الحاجة الشخصية فى الوقت نفسه، هو أن الجمهور العام لا يزال يشعر أن العلماء الرسميين، والمتخصصين من خريجى الأزهر الشريف هم أهل الثقة وعليهم يقع عبء الإفتاء فى المسائل الدقيقة التى تتعلق غالباً بأمور الميراث، والأحوال الشخصية وشئون العبادات، أما الدعاة غير الرسميين وغير المتخصصين فى العلم الشرعى، فلهم مجال آخر يتعلق بمسائل الترغيب والترهيب والأخلاق والسلوكيات، أكثر من تعلقه بمسائل العبادات والأحوال الشخصية وقضايا المواريث. عبر عن ذلك أحدهم (عامل، ٥٦سنة، قرية الحجانية - دمنهور - بحيرة) بقوله: «أقرب حاجة لىَّ إمام المسجد، ولو فيه حد نازل مصر نبعت معاه نسأل دار الإفتاء». وقال آخر(تاجر موبيليا، ٥٠سنة، دمياط): «بلجأ للجنة الفتوى عندنا فى دمياط، ومعظمهم بيساعد، ومتيسر إنك تسألهم، أى حد فى أى سن، سيدات ورجال... أسأل إمام المسجد، وإذا كان الموضوع أكبر منه بروح للأزهر فيه ناس متخصصة».

وفى مقابل إدراك بعض أفراد العينة لعزلة الخطاب الرسمى عن الواقع، نجد أن البعض الآخر يدرك أن الخطاب غير الرسمى أكثر قربًا من الواقع، وأكثر جرأة فى التصدى لمشكلاته وقضاياه، وبخاصة قضايا الشباب. ووردت الإشارة إلى عمرو خالد وبرنامجه «صناع الحياة» أكثر من مرة فى استجابات المبحوثين. ومن ذلك قول أحدهم (موظف، ٢٦سنة، مدينة سوهاج): «بحب أسمع لعمرو خالد؛ لإنه بيتكلم فى حاجات كثيرة واقعية، وبيربط الأحداث اللى كانت على أيام الرسول -عليه الصلاة والسلام- بالأحداث اللى موجودة حاليًا، زى تحفيز الشباب على العمل من خلال برنامج صناع الحياة».

والذين يرون أن الخطاب الرسمى بعيد عن الواقع، أفادوا بأنهم لا يثقون فى أئمة المساجد، ولا فى العلماء الرسميين للحصول على فتاوى بشأن ما يعرض لهم من مشكلات وقضايا، ويفضل البعض منهم اللجوء إلى كبير العائلة، أو إلى أحد الأصدقاء، أو أحد العلماء، أو

الدعاة غير الرسميين. يقول أحدهم (طالب، ١٩سنة، قرية ونينة. سوهاج): « لا أحب سؤال إمام المسجد، لأنه يتوسع فى الموضوع زيادة عن اللزوم ويبدخل فى حاجات تانية »، وقال آخر (موظف، ٢٦سنة، مدينة سوهاج): « ألجأ لحد كبير من عيلتنا،... لم أستشر واحدًا من أئمة المساجد... إمام المسجد بيعقد الدنيا ». وبتدقيق النظر فى مثل هذه الاستجابات نلاحظ أنها قد تعكس مواقف شخصية لبعض الأفراد من أئمة المساجد فى المناطق التى يعيشون فيها، ولا تعكس بالضرورة صورة فعلية عن حال هذا الإمام أو ذاك، مع احتمال وجود بعض الأئمة ممن لا يحسنون الإجابة عن تساؤلات رواد المسجد. ولاحظنا كذلك -فى استجابات أغلب المبحوثين- أنهم يتجهون إلى مصادر الخطاب الرسمى فى مسائلهم الشخصية، ويأملون أن يكون أكثر اقترابًا من الواقع وأكثر تفاعلاً مع مشكلاتهم بدرجة أكبر مما هو عليه حاليًا.

والحاصل أن ثمة ثلاثة أسباب تجعل الخطاب الدينى منعزلاً عن الواقع - حسب آراء أفراد عينة البحث - وهى: صعوبة اللغة المستخدمة، والابتعاد عن قضايا ومشكلات راهنة، ووجود إحساس لدى الجمهور بأن بعض العلماء وبعض أئمة المساجد يتعالون عليهم، أو غير متواضعين كما هو متوقع منهم، أو غير ملمين بأحكام الشرع.

٣- تباين تأثير الخطاب السائد فى الواقع الاجتماعى:

انقسمت آراء عينة البحث بخصوص تأثير أو عدم تأثير الخطاب الدينى السائد، إلى فريقين متساويين تقريبًا: **أحدهما** يرى أن الخطاب السائد غير مؤثر، **والثانى** يرى أنه مؤثر جزئيًّا فى جانب أو آخر من جوانب الحياة.

وبتحليل الاستجابات: اتضح لنا أن أسباب عدم التأثير لدى من قال بذلك هى ذاتها الأسباب التى تجعل الخطاب الدينى معزولاً وغير واقعى، وهى: صعوبة الأسلوب الذى يحول دون وصول الرسالة إلى الجمهور المستهدف، والابتعاد عن القضايا المهمة والتركيز على مسائل هامشية، والإغراق فى العموميات، وافتقار بعض العلماء وأئمة المساجد إلى المرونة والتواضع فى تعاملهم مع الجمهور.

تساءل أحدهم (موظف، ٤٢سنة، مدينة سوهاج) مستنكرًا عدم خوض العلماء فى قضايا مهمة، مثل ارتفاع الضرائب على الفئات محدودة الدخل، وتخفيفها عن الأغنياء أصحاب المشروعات، وقال: « ياريت رجال الدين يقولوا حرام اللى بيحصل للغلابة ده ».

وأضاف بعض المبحوثين سببين آخرين يسهمان فى غياب تأثير الخطاب الدينى، وهما: تبعية بعض العلماء للحكومة، وأن مشاغل الحياة ومشاكلها لا تترك وقتًا للاستماع إلى الدعاة أو لسؤال العلماء، ويرى أحدهم (موظف، ٣٠سنة، القاهرة الكبرى) أن الخطاب الدينى: « ملهوش أى تأثير، الناس مش فاهمة العلماء بيقولوا إيه، يبقى إزاى هيؤثر فيهم الدين. العلماء عملاء للسياسة وللحاكم، بيقولوا اللى بيحفِّظوهلهم واللى مقرر إنه يقولوه، واللى بيتكلم صح يخرصوه، أو ينفوه خارج البلد؛ علشان بيعرف الناس حقوقهم وواجباتهم ». ويرى آخر (موظف، ٢٦ سنة، مدينة سوهاج): « الناس لا وقت لديها لسماع العلماء أو لسؤالهم... الحياة لاهية الناس،...التفكير فى المستقبل والشغل هو ده الهم الأكبر».

أما الفريق الذى يقول: أن الخطاب السائد مؤثر فى جوانب مختلفة من الواقع الاجتماعى، فيرى أن هذه الجوانب هى « الأخلاق والسلوكيات »، و»مسائل الحلال والحرام » وبخاصة فى الأحوال الشخصية. تقول إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٥٣سنة، القاهرة الكبرى): « طبعًا فيه تأثير، كل ما العلماء بيكلموا الناس بتتنور وتتنبه وتعرف إن فيه حساب وتخاف الله ». ويستدل آخر (تاجر موبيليا، ٤٣سنة، دمياط) على تأثير الخطاب السائد بقوله: « دلوقتى أى وقت تدخل المسجد تلاقى شباب بيصلى، حتى النساء بيحضروا دروس بعد المغرب، والكلام ده بيهذب الإنسان، ويخلى أخلاقه الدينية عالية ».

وبربط استجابات المبحوثين بنمط إدراكهم لمعنى الخطاب الدينى؛ تأكد لنا الانقسام فى آراء العينة بشكل إجمالى بين اتجاهين: أحدهما يقول: بأن الخطاب السائد مؤثر فى بعض الجوانب، والثانى يقول: بأنه غير مؤثر على الإطلاق؛ ولكن بمزيد من التحليل للاستجابات مع ربطها بنمط إدراك مفهوم الخطاب الدينى، اتضحت تباينات أخرى فيما بين أصحاب الإدراك الواحد، وذلك على النحو الذى يوضحه الجدول التالى:

جدول رقم (٢)
علاقة نمط إدراك الخطاب الدينى.. بتأثيره فى الواقع الاجتماعي

نمط إدراك الخطاب	مؤثر ك	غير مؤثر ك
رؤية شاملة للحياة	١	٣
فهم بشرى للأصول المنزلة	٢	١
دعوة للأخلاق والفضيلة	٥	٣
المجموع	٨	٧

ومن أهم ما يوضحه الجدول السابق هو أن أكبر عدد من التكرارات الخاصة بتأثير الخطاب (خمسة تكرارات) جاءت ممن يدركون أن الخطاب الدينى عبارة عن دعوة للأخلاق والفضيلة، وهم بذلك متسقون مع ذواتهم؛ حيث إنهم إما ذوو خلفية صوفية، أو نزعة أخلاقية، على النحو الذى تشير إليه سماتهم الشخصية وبعض الملاحظات التى سجلناها بهذا الخصوص أثناء المقابلات المتعمقة معهم. ولكن أغلب الذين يدركون الخطاب على أنه رؤية شاملة للحياة.. يرون أن الخطاب السائد غير مؤثر فى الواقع الاجتماعى (٣من ٤)، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أن أصحاب مثل هذا الإدراك غالبًا ما يكونون على درجة أعلى من الوعى، ولديهم طموحات كبيرة فى الإصلاح الشامل، ومن ثم فهم لا يتوقفون كثيرًا عند الجزئيات التى يؤثر فيها الخطاب السائد فعلاً، مثل الجوانب الأخلاقية ومسائل الأحوال الشخصية.

ويربط الاستجابات بتوزيع أفراد العينة بين وجهى قبلى وبحرى والقاهرة الكبرى، لم يظهر فرق كبير بين قبلى وبحرى فيما يتعلق بالموقف من تأثير الخطاب السائد أو عدم تأثيره، وذلك على النحو الذى يوضحه الجدول التالى:

جدول رقم (٣)

علاقة التوزيع الجغرافى للعينة بالرأى فى قضية تأثير أو عدم تأثير الخطاب السائد

الجهة	مؤثر ك	غير مؤثر ك
قبلى	٣	٣
بحرى	٢	٤
القاهرة الكبرى	٣	-
المجموع	٨	٧

وقد يبدو من الجدول السابق: أن الاختلاف الكبير يوجد بين القاهرة الكبرى من جهة، ووجهى قبلى وبحرى من جهة أخرى؛ حيث إن جميع أفراد العينة من القاهرة الكبرى قالوا: بأن الخطاب السائد مؤثر فى بعض جوانب الحياة الاجتماعية (الأخلاقية أو السلوكية)، ولكن من المحتمل أن يكون هذا الاختلاف غير حقيقى؛ إذا أخذنا فى حسابنا أن عدد أفراد العينة من القاهرة الكبرى هو نصف عدد أىٍّ من الوجهين البحرى أو القبلى، ومن ثم فالاختلاف هنا قد يكون كميًّا فقط وليس نوعيًا.

وتؤكد بيانات الجدولين السابقين (٢) و(٣) ما سبق أن لاحظناه من وجود انقسام فى الرأى بين القائلين: بأن الخطاب السائد مؤثر، والقائلين: بعدم تأثيره فى الواقع الاجتماعى الراهن، والملفت للنظر: أن رأى الحالتين المسيحيتين جاء ليزيد هذه النتيجة تأكيدًا؛ إذ ذهب أحدهما إلى أن الخطاب الدينى مؤثر فى تقويم الأخلاق والسلوكيات، والآخر(مزارع حاليًا وموظف سابقًا، ٤٤سنة، مدينة سوهاج) قال بأنه غير مؤثر، وأضاف عبارة ذات دلالة مهمة تدل على أن التأثر يكون بقرار ذاتى من المتلقى أكثر منه بفعل الرسالة التى يتلقاها، يقول « نسيبهم يتكلموا واللى نشوفه صالح لنا نعمله ».

ثالثاً: موضوعات الخطاب وقضايا التجديد:

انتقلنا فى **المحور الثالث** إلى البحث عن موضوعات الخطاب الدينى وقضايا التجديد فيه من وجهة نظر عينة البحث. وللوصول إلى ذلك وضعنا خمسة أسئلة تحت هذا المحور، **أولها:**

يسأل عن الموضوعات الدارجة فى الخطاب السائد، وهى تلك التى تعبر عن مجالات وقضايا يهتم بها منتجو الخطاب، وإن لم تكن تعبر بالضرورة عن مجالات وقضايا تهم مستقبليه، وبخاصة من الجمهور العام، وطبقًا لتسلسل الأسئلة فى المقابلة المتعمقة الحرة؛ فإن مثل هذه المجالات والقضايا يعتبر الحديث فيها نوعًا من التكرار، ولا تتضمن جديدًا فى أغلب الأحوال من وجهة نظر المبحوث- أما **السؤال الثانى**: فهو الأكثر أهمية؛ حيث يسأل عن تلك الموضوعات التى يرى المبحوث أنها لا تحظى باهتمام منتجى الخطاب الدينى، فى حين أنها تستحق كثيرًا من الاهتمام؛ نظرًا لشدة الحاجة إليها.

ويتناول **السؤال الثالث**: الأسباب التى يمكن أن تفسر إعراض منتجى الخطاب عن بعض الموضوعات، هل هى أسباب ذاتية ترجع إلى منتج الخطاب نفسه؟ أم أسباب موضوعية تتعلق بالسياق الاجتماعى والسياسى؟ وهل يرى المبحوث أن قضايا اقتصادية مثل غلاء الأسعار، والبطالة تدخل ضمن الخطاب الدينى أم لا؟ والهدف من هذا **السؤال الرابع**: هو الوقوف على تصور المبحوث للحقول التى تدخل ضمن الخطاب الدينى، أو التى يجب أن يكون مشتملاً عليها، ويكون له دور فى معالجة مشكلاتها، أو لا يكون. وأخيرًا **السؤال الخامس**: عن الموضوعات والمشاكل التى عادة ما يتوجه الجمهور العام بالسؤال عنها لمنتجى الخطاب الدينى: ما أهم تلك الموضوعات؟ وما الذى يفسر اهتمامهم بها دون غيرها؟ وهل هى من موضوعات وقضايا المجال العام أم من موضوعات وقضايا المجال الخاص -أو الذاتى- الذى لا يتعدى الدائرة الشخصية الضيقة للفرد أو للأسرة؟

وبتحليل الاستجابات التى أدلى بها المبحوثون خلصنا إلى الآتى:

١- غلبة العبادات على موضوعات الخطاب السائد:

أفاد معظم أفراد عينة البحث (١٣ من ١٥) أن أكثر الموضوعات حضورًا فى الخطاب الدينى السائد الذى يتلقونه، هى تلك التى تتناول مسائل العبادات وفى مقدمتها الصلاة والصوم، وتأتى مسائل الأحوال الشخصية وقضايا الأخلاق فى مرتبة تالية للعبادات. عبر عن ذلك أحدهم (عامل، ٥٦سنة، قرية الحجانية/ دمنهور- بحيرة) بقوله: «بيتكلموا عن مواضيع فى فقه السنة... بيتكلموا عن تارك الصلاة، وعن فروض الإسلام، والصلاة والصيام والزكاة

والحج، والزواج بيتكلموا عنه، والمغالاة فى المهور... »، وفى الاتجاه ذاته يقول آخر (صاحب مصنع حلوى، ٥٠سنة، طنطا): « بيتكلموا فى الأساسيات: الصلاة والصوم والزكاة وتربية النشء، وعلاقات صلة الرحم والميراث... ». ولا تختلف بقية استجابات أغلبية أفراد العينة عن ذلك.

ومعنى ما سبق أن الخطاب السائد: يغلب عليه الطابع التقليدى، والبعد عن الخوض فى القضايا المستجدة؛ وهى التى تتطلب جهدًا واجتهادًا من جانب منتجى هذا الخطاب، بخلاف مسائل العبادات التى تتمتع بقدر كبير من الثبات، وتستند إلى تراث فقهى راسخ، ويعتمد الحديث فيها على النقل فى المقام الأول، ولا تؤثر التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أحكامها إلا فى أضيق الحدود. ويمكننا القول أيضًا: إن تركيز منتجى الخطاب على موضوعات العبادات بدرجة أكبر من غيرها، يعكس الأهمية الكبرى للعبادات باعتبارها « أساسات الدين » على حد تعبير أحد المبحوثين، ولكن هذا التركيز يوفر فى الوقت نفسه مخرجًا يهرع إليه منتجو الخطاب بعيدًا عن القضايا التى تتطلب قدرًا أكبر من القدرة على الاجتهاد، وسعة اطلاع، وجرأة فى التناول؛ وهى أمور قد لا تتيسر لكثير منهم، وبخاصة الرسميين، وأصحاب المناصب الكبيرة فى المؤسسات الدينية.

وبربط استجابات المبحوثين -فى هذا الموضوع- بنمط إدراكهم للخطاب الدينى، لم تختلف النتيجة السابق ذكرها؛ حيث احتلت العبادات المرتبة الأولى فى سلم أولويات الخطاب السائد، كما يدركه أفراد عينة البحث؛ الأمر الذى يؤكد دقة الاستنتاج السابق، ويؤكده أيضًا ما توصلنا إليه بعد ربط الاستجابات بالتوزيع الجغرافى للعينة (قبلى، وبحرى، والقاهرة الكبرى). والجدول التالى يوضح تكرار أهم الموضوعات وفقًا لنمط إدراك الخطاب الدينى لدى أفراد العينة.

جدول رقم (٤)

العلاقة بين نمط إدراك الخطاب الدينى، وأهم موضوعاته

نمط إدراك الخطاب	عبادات ك	أحوال شخصية ك	أخلاق وسلوك ك	معاملات ك	إجمالى ك
رؤيــة شــاملة للحياة	٣	٢	١	١	٧
فهــم بشــرى للنصوص	٢	٢	-	-	٤
دعوة للأخلاق والفضيلة	٤	١	٣	٣	١١
المجموع	٩	٥	٤	٤	٢٢

وتجدر الإشارة هنا إلى ثلاثة أمور: **أولها:** أن التكرارات الواردة فى الجدول السابق غير منسوبة إلى إجمالى عدد أفراد العينة؛ حيث أفاد كل منهم بأكثر من موضوع فى إجابته عن السؤال الخاص بالموضوعات التى يرى أن منتجى الخطاب أكثر اهتمامًا بها. **والأمر الثانى:** هو ورود الموضوعات السياسية -مرتين- فقط فى استجابات المبحوثين باعتبارها موضوعات حاضرة فى الخطاب الدينى السائد، أما **الأمر الثالث:** فهو أن الحالتين المسيحيتين تم إدراجهما فى بيانات الجدول السابق، وقد أفاد أحدهما بأن العبادات هى الموضوع الغالب على الخطاب المسيحى الذى يتلقاه، بينما أفاد الآخر بأن الأخلاق -وما يتعلق بتقويم السلوك- هو الموضوع الغالب على الخطاب الذى يتلقاه.

٢- تنوع الموضوعات الغائبة عن الخطاب السائد:

أشار المبحوثون إلى عدد من الموضوعات التى رأوا أن منتجى الخطاب الدينى السائد لا يهتمون بها الاهتمام الكافى. وجاءت الموضوعات المتعلقة بمشكلات الشباب فى مقدمة تلك الموضوعات (تكرر ذكرها ٥ مرات)، قال أحدهم (موظف، ٢٦سنة، مدينة سوهاج): إن أول الموضوعات التى لا تحظى باهتمام العلماء هى: « موضوعات الشباب، مفروض يقولوا للشباب

يعمل إيه عشان يتجه للدين،... وإن الدين بيحث على العمل والاجتهاد، مفروض يقربوا الشباب من سياسة الدولة، بدل ما الدولة بتبعد الدعاة وتنفيهم للخارج (إشارة إلى حالة عمرو خالد)... يتكلموا فى حل مشاكل الشباب العاطل، والشباب اللى بيشرب مخدرات، ولا يكفى الكلام؛ مفروض يساهموا فى حل مشكلاتهم... ». وكذلك تكرر ذكر الموضوعات المتعلقة بالمعاملات المستحدثة (تكرر ذكرها ٤ مرات)، ومن أهمها: القروض والفوائد البنكية، والاستغلال الذى يتعرض له بعض الأفراد من جانب جهات العمل فى القطاعين الحكومى والخاص، أو تتعرض له بعض الفئات -اجتماعية- نتيجة لنظام الضرائب المعمول به، والذى يمنح أصحاب الثروات والمشروعات الاستثمارية إعفاءات كبيرة، بينما يفرض أعباء ضريبية على الموظفين والمستهلكين.

وذكر آخرون أن ثمة موضوعات غائبة تمامًا، ورغم أهميتها البالغة إلا أن منتجى الخطاب السائد -وخاصة الرسمى- يتجاهلونها، وفى مقدمتها: المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتعديل القوانين الموجودة حتى تكون متفقة معها، وظاهرة الفساد المستشرى فى الدولة، والمواد الإعلامية الهابطة التى تنبو عن الأخلاق والمبادئ والقيم الدينية والأخلاقية، والأفكار الهدامة، وتقليد الأجانب فى الأمور الخاصة بالمرأة وعلاقتها بالرجل يقول أحدهم (صاحب مصنع، ٥٠سنة، طنطا): « يجب أن يتكلموا إنه فيه موضوعات تصلح للغرب، ولا تصلح لينا، الست وصلت لأعلى المناصب بمساعدة الرجل، والدين كفل لها حقوقها، مش محتاجين قوانين تزعزع العلاقة الزوجية ». وفى رأيه أن الذى يمنع من تناول مثل هذه الموضوعات، هو الخوف من السياسة كما سنوضح فيما بعد.

وبتحليل الاستجابات السابقة من حيث علاقتها بنمط إدراك الخطاب الدينى، تبين أن الذين يدركونه باعتباره رؤية شاملة للحياة، يرون أن أكثر الموضوعات غيابًا عن الخطاب السائد: هى الموضوعات الخاصة بالمعاملات، تليها موضوعات الشباب ومشكلاته، وفى مقدمتها الانحرافات الأخلاقية والبطالة.

ومن الطبيعى أن يدعوا هؤلاء إلى ضرورة العناية بقضايا المعاملات ومشكلات الشباب، باعتبارها من أبرز الظواهر التى تغيب عنها الحلول المستندة إلى أحكام الدين وتشريعاته، فى الوقت الذى يجب - حسب فهمهم للخطاب الدينى كرؤية شاملة للحياة- أن تكون مثل هذه

الموضوعات والقضايا فى صلب الاهتمام العام، وأن تأتى على قمة أولويات منتجى الخطاب الدينى. وهم يرون أيضًا أن قضايا مثل غلاء الأسعار والبطالة يجب أن تدخل فى صلب الخطاب الدينى، وأن يجتهد العلماء فى تقديم رؤى وحلول تسهم فى رفع المعاناة عن الناس، وبخاصة عن الشباب العاطلين عن العمل.

أما الذين يدركون الخطاب باعتباره فهمًا بشريًّا للنصوص المنزلة، فقد أكدوا فقط على قلة الاهتمام بالقضايا الأخلاقية، وتلك المتعلقة بمشكلات الشباب. وفى رأى بعضهم أن أكثر الموضوعات أهمية هى سيرة الرسول ﷺ وصحابته التى يجب أن تقدم للشباب ليتخذهم قدوة له فى حياته، تقول إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٢٥سنة، القاهرة الكبرى): «دايمًا مفيش كلام عن قصص الصحابة، والنماذج اللى كانت على عهد الرسول ﷺ، اللى مفروض نحتذى بها؛ لأنها نماذج فى الصدق، والأمانة، والإنفاق فى سبيل الله، ونشر الإسلام». ويرفض أنصار هذا التوجه أن يتضمن الخطاب الدينى قضايا مثل غلاء الأسعار والبطالة وما يشبهها من مشكلات اقتصادية، ويعللون ذلك بأنها من اختصاص الحكومة، وهى التى تسببت فيها، وهى التى يجب أن تحلها.!

هذا بخلاف ما يذهب إليه الذين يدركون الخطاب الدينى -باعتباره دعوة للأخلاق والفضيلة-؛ حيث يرون أن غلاء الأسعار والبطالة وما شاكل ذلك، يدخل فى صميم الخطاب الدينى ويقع ضمن مسئولياته، ويرون أيضًا أن أهم الموضوعات التى لا تحظى بالاهتمام الكافى فى الخطاب السائد.. هى مسائل الأحوال الشخصية، وذكر أحدهم (تاجر، ٤٣سنة، دمياط) أن موضوع التفرقة بين المسلم والمسيحى غائب عن الخطاب السائد، وأن هذه التفرقة تقوم بها الدولة لصالح المسيحى على حساب المسلم، يقول: «المسيحيين واخدين حقوق أكتر من المسلمين... لو الواحد اشتكى ويكون مسلم وخصمه مسيحى فى بندر أو مركز، المسيحى بياخد حقه علشان البابا بتاعهم بيحميهم، ولو واحد سائق مسيحى أخذت رخصته بياخدها تانى بعد ساعة، لكن إحنا كمسلمين بيعذبونا...».

وقد تعكس مثل تلك الإفادة خبرة ذاتية سلبية عانى منها المبحوث، أو قد يكون على دراية بوقائع تؤكد ما ذهب إليه، وفى جميع الحالات؛ فإن الإشارة إلى هذا الموضوع تثبت أن الخطاب الدينى مقتصر على تغطية بعض الموضوعات المهمة كالتى أشار إليها بعض المبحوثين.

٣- الخوف من السلطة، يعوق تجديد الخطاب الدينى:

إذا كانت الموضوعات الغائبة عن الخطاب الدينى السائد، وتلك التى لا تحظى لدى منتجيه باهتمام كاف، تعكس جانبًا من جوانب القصور فى هذا الخطاب، وتشير إلى بعض الجوانب التى تحتاج إلى اجتهادات جديدة من شأنها الإسهام فى استيعاب المستجدات والقضايا المستحدثة، إذا كان ذلك كذلك؛ فإن من المهم البحث عن السبب أو الأسباب التى تقف خلف تهميش مثل تلك الموضوعات والقضايا. وقد كشف لنا تحليل استجابات عينة البحث عن شبه إجماع -بين كل من قابلناهم- على أن الخوف من بطش السلطة بمستوياتها المختلفة، هو السبب الأول -وإن لم يكن السبب الوحيد- الذى يدفع منتجى الخطاب الدينى إلى الإحجام عن الخوض فيما يعتبره الجمهور العام قضايا مهمة، ويبدو أن هذا الخوف ذاته: هو الذى يفسر الاهتمام بما هو أقل أهمية، وإهمال الأكثر أهمية فى آن واحد.

والجدول التالى يوضح أهم الأسباب التى يراها المبحوثون مانعة من تناول بعض الموضوعات المهمة فى الخطاب الدينى السائد:

جدول رقم (٥)

أهم أسباب غياب موضوعات مهمة عن الخطاب السائد

السبب	التكرار
الخوف من السلطة	١١
عدم التخصص	١
عدم التفرغ	١

ثمة أسباب أخرى غير تلك التى أدلى بها المبحوثون، تقف وراء غياب بعض الموضوعات المهمة عن الخطاب الدينى السائد، ولكن الذى يهمنا هو أن السبب الرئيسى فى نظرهم هو الخوف وإيثار السلامة. ويتجلى عمق الاقتناع بأن الخوف من السلطة هو السبب الرئيسى، من خلال الكلمات والتعبيرات التى عبر بها أفراد العينة عن رأيهم فى هذا الموضوع. وينبع الخوف من مختلف مستويات السلطة؛ بدءًا بسلطة وزارة الأوقاف على الأئمة والخطباء، مرورًا بسلطة وزارة الداخلية، وصولاً لسلطة الدولة بما تملكه من أجهزة ومؤسسات وأدوات للقمع، إضافة إلى

الخضوع للضغوط الخارجية حسب أقوال البعض. ومن المفيد إيراد بعضها هنا، ومن ذلك الآتى:

أ- يقول أحدهم (تاجر، ٤٣سنة، دمياط): «الخوف من السلطة؛ لأن رجل الدين مش محمى، ممكن يقول الكلمة من على المنبر وينشال تأنى يوم، وحدث هذا الموقف هنا فى دمياط... ».

ب- يقول آخر (سائق، ٤١سنة، الإسكندرية): «على ما سمعت إنه فيه لائحة ماشيين عليها (الأئمة) وهم معذورين. فيه حاجات ما يقدرش يتعداها؛ لإنه مرتبط بسياسة الدولة... ».

ج- يقول (موظف، ٤٢ سنة، سوهاج): «اتجاه الدولة أهم سبب، والأخطر من كده الضغط على الدولة من الخارج، وتهميش الموضوعات الدينية بالوسائل الإعلامية، وأبسط شىء الراديو، ونخشى كمان يبطلوا إذاعة القرآن... ده بردك سياسة دولة، رجل الدين ملهوش ذنب فيها؛ لكن له رأى.. مفروض ما يكونش سلبى... ».

د - يقول (طالب، ١٩سنة، قرية ونينة - سوهاج): «لو العلماء تكلموا فى المشاكل دى، الحكومة تعتبرها كلام فى السياسة، والدولة مش عايزة حد يتكلم فى أى موضوع من الموضوعات دى... عشان ما يهاجمش السلطة، وقلة الشغل (البطالة) من اختصاص السلطة، ولو اتكلم فيها لازم هيهاجم السلطة «.

هـ- فى رأى آخر (تاجر، ٥٩سنة، سوهاج) أن إحجام العلماء عن الخوض فى موضوعات مهمة نتيجة: «سياسة دولة،لازم الواحد فيهم يمشى جنب الحيط علشان يصون نفسه ويربى عياله... هم ما بيتوسعوش فى الكلام عشان الشباب ما يفكرش كتير ويناهد الدولة وسياستها... واللى بيخدوه بيتبهدل هو وأهله... ».

و- مبحوث آخر (صاحب مصنع،٥٠سنة، طنطا) يلخص الموقف بدقة واختصار، فيقول إن السبب يرجع إلى أن العلماء والأئمة: «ماشيين بمقولة: من لا يملك قوته لا يملك قراره ». وبهذه العبارة يكون المبحوث قد وضع يده على علة العلل المتمثلة فى فقدان كثير من العلماء لاستقلاليتهم فى مصدر رزقهم، ومن ثم فقدانهم حريتهم فى التفكير والتعبير والاجتهاد والجرأة على الجهر بما يرونه حقًّا.

وهكذا، يبدو من تلك النصوص أيضًا: أن المبحوثين لا يتصورون سببًا لغياب موضوعات مهمة عن الخطاب الدينى السائد، غير الخوف من التحدث فى السياسة، ومن ثم بطش السلطة. وتكشف استجاباتهم عن تغلغل هذا الاقتناع لديهم، بغض النظر عن طبيعة الموضوعات المهمشة أو الغائبة عن الخطاب الدينى. ومع هذا الإجماع نلاحظ انقسامًا فى الآراء بخصوص ما يجب أن يكون عليه موقف منتجى الخطاب من العلماء ورجال الدين: هل يقاومون الخوف ويغامرون بتحدى السلطة؟ أم أنهم لا ذنب لهم، والمسئولية تقع على كاهل الدولة وسلطاتها؟ بعض المبحوثين يرى: أن العالم يجب أن يكون حرًّا، وأن يصدع بكلمة الحق، ويتحمل نتيجة ذلك، وبعضهم الآخر يرى: أن العلماء معذورون، وما لم تسمح لهم الدولة بحرية القول والخوض فى جميع القضايا والمشكلات -أيًّا كانت طبيعتها- فلا مسئولية عليهم.

ويسهم الخوف -من خلال جبهة أخرى- فى إعاقة تجديد الخطاب الدينى فى القضايا العامة، وهى جبهة الجمهور العام نفسه؛ إذ كشفت استجابات عينة البحث عن أن الأسئلة التى يتوجه بها الناس إلى العلماء لا تخرج عن شئون الحياة الخاصة لهم ولأسرهم على أقصى تقدير. ولم ترد فى الاستجابات، ولو على سبيل الاستثناء، إشارة واحدة إلى الاهتمام بالشئون العامة فى الأسئلة التى يطرحها الجمهور العام على منتجى الخطاب الدينى، فقط هناك أسئلة عن الذنوب الفردية، لا الجماعية، وعن الانحرافات السلوكية الشخصية، لا المؤسسية، وعن مسائل الأحوال الشخصية التى تهم الفرد وأسرته. وإذا كان منتجو الخطاب الدينى ينأون عن الكلام فى موضوعات مهمة خشية السلطة؛ فإن الجمهور العام لا يسأل عن قضايا تدخل فى إطار المجال العام الذى يقود فى كثير من الأحيان إلى التحدث فى السياسة، ومن ثم يؤدى إلى الوقوع فيما يتصوره الجمهور العام أمرًا محظورًا، وخيم العاقبة.

رابعًا: تجديد الخطاب الدينى: الآليات والمضامين والوسائل:

ليس من المفترض أن يسهم الجمهور العام فى إنتاج الخطاب الدينى، فضلاً عن أن يشارك فى تجديده، اللهم إلا بطريق غير مباشر عبر المساهمة فى إثارة الأسئلة، ونقلها إلى أهل الاختصاص، وطلب الفتوى منهم، ومن ثم حَفْزهم على القيام بمسئولياتهم فى استيعاب المستجدات، وضبطها فى ضوء أحكام الدين ومبادئه الأساسية، وعلى هدى المقاصد العامة للشريعة. وبهذا المعنى؛ فإن تساؤلات الجمهور العام وملاحظاته، وحتى انتقاداته للخطاب

السائد، تشكل فى مجموعها طلبًا اجتماعيًّا حافزًا على التجديد، كما أنها تقدم مؤشرًا يمكن الاستدلال به على بعض القضايا المهمة التى تحتاج إلى التجديد. ولكن هذا «الطلب الاجتماعى على التجديد» -إذا جاز التعبير- قد يكون فعالاً، وقد يكون خاملاً. ويتوقف الأمر فى كلتا الحالتين على عوامل متعددة، بعضها يرجع إلى الوعى الذاتى بالقضايا والمستجدات التى تحتاج إلى فقه جديد، وبعضها يرجع إلى توافر قنوات مفتوحة وميسور الوصول إليها؛ تتلقى الأسئلة وتجيب عنها، وبعضها الآخر يرجع إلى نمط الثقافة السائدة وما إذا كانت تسمح بالسؤال أصلاً وتحض عليه؛ أم أنها تجعل من السؤال مغامرة غير مأمونة العواقب، وخاصة إذا تعلق بقضية عامة تتجاوز الاهتمام الشخصى للسائل، وتضع المسئول أمام اختبار حقيقى؛ ليس لعلمه ومعرفته فقط، وإنما لجرأته وتجرده فى قول كلمة الحق على الملأ.

ولسنا هنا بصدد البحث عن فاعلية أو عدم فاعلية الطلب الاجتماعى على تجديد الخطاب الدينى، ولا فاعلية أو عدم فاعلية الرد الفقهى والفكرى على هذا الطلب؛ فهذا موضوع لبحث آخر، ولكن ما يهمنا هو أنه بما أن الجمهور العام هو صاحب التعبير الاجتماعى على طلب التجديد، وهو فى الوقت ذاته المتلقى الأكبر عددًا، والأوسع انتشارًا للخطاب الدينى -الرسمى وغير الرسمى- فإن رؤيته يمكن أن تسهم فى الكشف عن جوانب مهمة من عملية التجديد، وهو ما حاولنا قراءته فى أذهان أفراد عينة البحث، وتحليله من واقع استجاباتهم التى أدلوا بها أثناء المقابلات المتعمقة معهم.

وقد انصبَّ اهتمامنا فى هذا المحور على محاولة الكشف عن رؤية هذا الجمهور -وإن كان ذلك من خلال عينة محدودة العدد- فيما يتعلق بالآليات الفكرية المستخدمة فى إنتاج الخطاب، ومضمون هذا الخطاب بشكل عام، والوسائل الرئيسية المستخدمة فى نقله وإشاعته فى أوساط الجمهور العام. وحول هذه الجوانب دارت تساؤلات المحور الرابع من المقابلات مع أفراد العينة.

وقد كشف تحليل الاستجابات: عن أن ثمة عدم رضا عن مجمل الخطاب الدينى الذى تنتجه المؤسسات الرسمية -باستثناء حالة الخطاب الدينى المسيحى الذى تنتجه الكنيسة، حيث قال المبحوثان المسيحيان: أنه كاف ويلبى حاجتهما إليه- أما الخطاب الإسلامى غير الرسمى فيحظى بقدر أكبر من القبول، كما يحظى بدرجة أعلى من الثقة مقارنة بالخطاب الرسمى. ولمزيد من التعمق استطردنا فى الأسئلة إلى ثلاثة أبعاد:

أولها: عن وسائل نقل الخطاب، مع التركيز على وسائل الإعلام، والمقررات الدراسية، إلى جانب الوسائل الأخرى مثل: خطبة الجمعة، والدروس المسجدية، والأشرطة المسجلة.

وثانيها: عن المضامين العامة للخطاب وموضوعاته، وما الذى يجب أن تكون عليه حتى تحقق الفائدة منها؟.

وثالثها: عن الآليات الفكرية والمعرفية التى تستخدم فى إنتاج الخطاب الدينى؛ وذلك من حيث تأثيرها، وقوة الاقتناع التى تولدها فى المستقبل لهذا الخطاب.

١. الآليات الفكرية والمعرفية لإنتاج الخطاب:

حاولنا خلال المقابلات المتعمقة أن نعرف رؤية أفراد العينة للآليات المعرفية والفكرية التى يستخدمها منتجو الخطاب الدينى فى الواقع الحالى، وكانت وسيلتنا فى ذلك هى طرح سلسلة من الأسئلة البسيطة حول نقطتين أساسيتين هما: التأثير، والقدرة على الإقناع: هل يؤثر الخطاب فى مستقبليه؟ وما الذى يجعل هذا الخطاب مقنعًا لهم؟. وافترضنا أن الإجابة عن مثل هذا النوع من الأسئلة سوف يساعدنا على معرفة وجهة نظر أفراد العينة فى آليات إنتاج الخطاب الدينى (الرسمى وغير الرسمى)، باعتبار أن عمليات التأثير والإقناع تعتمد - ضمن ما تعتمد- على نوعية الحجج التى يتضمنها الخطاب، وكيفية استنباطها وتقديمها للمتلقى، ومدى ارتباطها بهمومه ومشكلاته، وأيضًا مدى قدرته على فهمها والإنصات إليها. وقد كشفت لنا الاستجابات التى حصلنا عليها عن الآتى:

أ- أن ثمة ميلاً لدى أغلب أفراد العينة لتفضيل آلية «النقل»؛ والتى تعنى بالنسبة لهم: الاستماع لتلاوة القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والبرامج التى تتناول سيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام. وظهر هذا الميل بأكثر من صيغة فى كلامهم، ومن ذلك: الثناء على إذاعة القرآن الكريم، وتفضيل الاستماع إلى ما تذيعه- وبخاصة تلاوة القرآن الكريم وتفسيره-، والإعجاب الشديد بخواطر الشيخ الشعراوى، التى كان التلفزيون المصرى يبثها بانتظام عقب صلاة الجمعة. عندما سألناهم عن تفضيلاتهم إذا أرادوا زيادة معرفتهم بالدين، قال أحدهم (تاجر، ٥٩سنة، سوهاج): «بحب أسمع محمد صديق المنشاوى، والحصرى، وعبد الباسط... حاليًا بسمع قرآن كتير وأنا بمارس عملى... إذاعة القرآن كافية قوى وبرامجها حلوة ومتنوعة). وقالت أخرى: (ربة منزل، ٥٣ سنة، القاهرة الكبرى) «بحب أسمع الشيخ السديسى عشان

بفهم قراءته فى المصحف، ويحب أسمع الشيخ شعراوى فى تفسير القرآن... والشيخ عبد الباسط عبد الصمد». وقال ثالث (سائق، ٤١سنة، الإسكندرية): إذاعة القرآن كويسة، بتنوع فى البرامج خاصة قراءة القرآن والتفسير، حاجات كويسة وهو ده اللى أنا عايزه».

وقال آخر (عامل، ٥٦سنة، الحجانية/ بحيرة): «بنجيب الراديو على إذاعة القرآن الكريم، ولو فيه شريط كويس قرآن بنسمعه، والعيال عندى بيجيبوا شرايط لعمرو خالد».

ونستنتج من مثل تلك الأقوال: أن الميل للخطاب المنقول، وخاصة إذا كان فى مستوى القرآن الكريم والسُّنة، هو نتيجة طبيعية لغلبة هذا النمط على ما تقدمه وسائل نقل الخطاب للجمهور العام، أو قد يكون نتيجة شعور هذا الجمهور بقلة الفائدة التى يحصل عليها من أنماط الخطابات الأخرى؛ أو لأن هذه الأنماط غير مقنعة وغير مؤثرة بدرجة كافية؛ ومن ثم يفضل الاستماع للقرآن والأحاديث النبوية التى تحقق له إشباعًا معنويًّا وروحيًّا، ويضمن معها الحصول على ثواب الاستماع على أقل تقدير.

ب- يميل أغلب أفراد العينة إلى تفضيل آليات «التبسيط والتيسير والترغيب»؛ وهى مكملة لآلية النقل السابق ذكرها، وخادمة لها؛ حيث يعنى التبسيط والتيسير بالنسبة لهم: الحديث بلغة مفهومة تخبرهم بمراد القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، والخطاب الذى يحقق هذا الهدف هو الأكثر إقناعًا، والأكثر تأثيرًا فى الوقت نفسه. يقول أحدهم (صاحب مصنع حلوى، ٥٠سنة، طنطا): «مفيش شك إن أسلوب الشعراوى فيه من البساطة والسهولة ما يصل للرجل الأمى». وقال آخر (تاجر،٤٣سنة، دمياط): «كلام عمرو خالد كويس، بيفتح حاجات فى السيرة بنستفيد منها... خللى بالك عمرو خالد مابيقولش حاجات جديدة، لكن طريقة التناول متماشية مع روح العصر اللى إحنا عايشينه، والناس بتحب اللى يقدر يوصل لقلبها». وفى الاتجاه ذاته يؤكد مبحوث آخر (موظف، ٢٦سنة، سوهاج) على أنه يفضل الاستماع لعمرو خالد، ويشرح السبب فيقول: «لأنه بيتكلم فى حاجات كتير واقعية، بيربط الأحداث اللى كانت على أيام الرسول -عليه الصلاة والسلام- بالأحداث اللى موجودة حاليًا؛ زى تحفيز الشباب على العمل من خلال برنامج صناع الحياة... كلامه سهل ومعانيه أسهل، مش بيبكى أثناء الكلام أو بينفعل، مش بيزعق، مش بيخوفنى من الدين، بيحاول يسهل كل حاجة، على -الأقل المستقبل- بيحاول يخليه مشرق أمام الشباب... عشان كده بيقدر يوصل لى بسرعة».

إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٥٣سنة، الجيزة / القاهرة الكبرى) عبرت عن رأيها بشيء من المبالغة فقالت: «الشيخ الشعراوى حتى لو طفل بيسمعه هيفهمه».

إن الميل لآلية التبسيط والتيسير والترغيب على هذا النحو، يبين أن الجمهور العام -من خلال آراء عينة هذا البحث- يوجه نقدًا لبعض الذين يشاركون فى إنتاج الخطاب الدينى السائد لكونهم يصوغونه بلغة صعبة ومعقدة، لا تراعى المستويات الثقافية، والقدرة على الاستيعاب لدى عامة الناس، وتعتمد على الترهيب والتخويف أكثر من اعتمادها على الترغيب والتبشير، والنتيجة هى أن مثل هذا الخطاب يكون غير مؤثر وغير مقنع. ولقد لاحظنا أن نصيب الخطاب الرسمى من هذا النقد كبير جدًّا مقارنة بنصيب الخطاب غير الرسمى؛ إذ تكررت الإشارة إلى عدم القدرة على فهم ما يقوله مفتى الديار عدة مرات، كما تكررت الإشادة بعدد من العلماء والدعاة المعروفين الذين يغلب على نهجهم التبسيط والتيسير والابتعاد عن أسلوب الزجر والترهيب، مثل الشيخ الشعراوى وعمرو خالد ومحمد هداية، وعدد آخر من أئمة المساجد المعروفين فقط على المستوى المحلى فى القرى وبعض المدن.

ج ـ نقد آليات التكرار والترهيب والاكتفاء بالوعظ الأخلاقى: إن غلبة آليات مثل التكرار والترهيب والوعظ فى اتجاه واحد على الخطاب السائد -وبخاصة فى شقه الرسمى-، قد تكون من بين الأسباب التى تدفع الجمهور العام نحو تفضيل آلية النقل (بالمعنى الذى حددناه آنفًا من حيث الاقتصار على الأصول المتمثلة فى القرآن والسُّنة الصحيحة).

ولا يشير هذا إلى أن الجمهور العام فى غنى عن خطاب شارح ومجدد فى فهم تلك الأصول وتفعيلها فى الواقع، بقدر ما يشير إلى نوع من الاحتجاج الصامت على غياب مثل هذا الخطاب، أو على ضعفه وعدم قدرته على تلبية احتياجات الناس.

وإذا كان معظم أفراد العينة قد أبدوا ملاحظات نقدية مهمة على الخطاب الدينى الرسمى؛ إلا أن ذلك لا يعنى فقدانهم الثقة فى المؤسسات الدينية الرسمية؛ بل على العكس وجدناهم يحملون قدرًا كبيرًا من الاحترام والتبجيل للأزهر الشريف ولدار الإفتاء، وينتظرون منهما الكثير فى تلبية حاجاتهم إلى رأى الدين وتوجيهاته التى تتعامل مع المشكلات الواقعية التى يواجهونها. ويستند هذا التقدير إلى التراث العريق للأزهر. وقد عبر عن ذلك أحدهم (فلاح، ٥٦سنة، الحجانية /بحيرة) فى قوله: «طلعنا لاقينا أهالينا بتتكلم عن الأزهر، ودار الإفتاء».

وهذا الرجل نفسه هو الذى قال فى استجابته: إن الشرط الأساسى الذى يجعل كلام العالم مؤثرًا هو أن يكون حرًا « رجل الدين مفروض رأيه يبقى حر، ولا تتحكم فيه السياسة ».

بقيت الإشارة هنا إلى الموقف المسيحى؛ حيث عبر كل من المبحوثين المسيحيين فى عينة هذا البحث، عن أن الخطاب الدينى المسيحى الذى تنتجه الكنيسة بمستوياتها المختلفة كافٍ ومقنع، ولا خلاف حوله. قال أحدهما (فلاح، ٤٤سنة، ونينة الغربية، سوهاج): « الكنيسة تقوم بما يكفى لتعليم الدين »، وحدد بدقة ووضوح العوامل التى تجعله مقتنعًا بالخطاب الكنسى فى ثلاثة عوامل هى: « قرب الكنيسة من بيتى ومحل سكنى، قرب الكلام من مذهبى الأرثوذكسى، وأن أصل الكلام من الإنجيل ».

وورد فى استجاباتهما للأسئلة التى وجهناها لهما ما يفيد إدراكهما أن آلية النقل هى أهم آليات إنتاج الخطاب الكنسى، إلى جانب آلية السرد القصصى لسيرة بعض القديسين والرهبان، وأدليا بآراء تفيد اقتناعهما بأن هاتين الآليتين هما الأكثر فاعلية فى إنتاج خطابًا أكثر إقناعًا، وأكثر تأثيرًا فى الواقع الذى يعيشانه.

٢- المضامين العامة للخطاب:

بينما تدور المضامين العامة للخطاب الرسمى السائد فى الأغلب الأعم -وكما يدركها معظم أفراد عينة البحث- حول قضايا قديمة؛ فإن القضايا الواقعية حظها قليل، أما القضايا المستقبلية فهى الغائب الأول فى هذا الخطاب. وسبق أن استنتجنا هذا المعنى من تأكيد المبحوثين على أن الخطاب السائد، يركز على مجال العبادات والأخلاق أكثر من تركيزه على جانب المعاملات والمشكلات التى تواجه الناس فى حياتهم اليومية. وفى مقابل ذلك يدرك المبحوثون فى معظمهم أيضًا: أن مضامين الخطاب الدينى غير الرسمى أكثر اقترابًا من مشكلات الواقع، ويدللون على ذلك بذكر أسماء بعض العلماء والدعاة الذين يركزون على مثل هذه المضامين الواقعية مثل الشيخ يوسف القرضاوى، وعمرو خالد، ومحمد هداية، والشيخ حمادة البح.

وثمة رغبة قوية لدى أغلبية المبحوثين فى أن يكون الخطاب واقعيًّا فى مضمونه. والمقصود بواقعية الخطاب -كما استنتجناها من استجابات أفراد العينة- هو أن يرتبط بقضايا تهم الناس فى حياتهم اليومية، وأن يقدم لهم ما يفيد فى التغلب على تلك القضايا، ولا يكتفى

بالوعظ الأخلاقي. وسبق أن استنتجنا هذا المعنى من تأكيد المبحوثين على أن الخطاب السائد يركز على مجال العبادات والأخلاق، أكثر من تركيزه على جانب المعاملات والمشكلات التى تواجه الناس فى حياتهم اليومية.

إن واقعية الخطاب المطلوبة فى هذا السياق لا تفيد معنى التساهل أو التفريط فى تعاليم الدين وأحكامه، ولكن المعنى الذى تقصده -بالدرجة الأولى- أن يكون الخطاب «صادقًا وجادًّا»، وأن يخرج هذا الخطاب من عزلته، وأن يتحرر من معطيات الماضى ووقائعه التاريخية، وتتوثق علاقته بما يعيشه الناس فعلاً. وبهذا المعنى يصبح المدخل الواقعى ليس فقط إحدى آليات إنتاج الخطاب الدينى، وإنما إحدى أدوات تجديده عبر ربطه بمجريات الحياة الاجتماعية دائمة التغير. يقول أحدهم (موظف، ٢٦سنة، سوهاج): «الكلام فى الدين يكون له تأثير فى الناس؛ إذا مس حياتهم اليومية، والمشاكل مثل المخدرات والبطالة والكسب الحلال...». ويرى آخر (صاحب مصنع حلوى، ٥٠سنة، طنطا) أن الخطاب الدينى يكون مؤثرًا إذا «الدعاة والشيوخ تكلموا فى مشاكل الناس اللى موجودة، يتكلموا عن الاستغلال، وغلاء الأسعار، والتكافل بين الناس ومشاكل الشباب، كل شىء لابد أن يرتبط بالدين».

ويشير الإلحاح على ضرورة أن يكون الخطاب الدينى واقعيًّا إلى الوعى بأن الخطاب السائد يفتقد هذه السمة، أو أنه يعانى نقصًا ملحوظًا فيها، ويغلب عليه الطابع التجريدى الذى يصعب فهمه أيضًا بالنسبة للجمهور العام، وينصب هذا النقد -بالدرجة الأولى- على الخطاب الرسمى كما سبق أن أشرنا. وفى هذا السياق أيضًا عبر أغلب أفراد العينة عن تبرمهم من «التكرار» كآلية من آليات إنتاج الخطاب السائد، وأفادوا بأن هذا التكرار الذى يلمسونه فى كثير من خطب أئمة المساجد، والأحاديث الدينية التى يبثها التلفزيون المصرى، يرسم صورة غير محببة عن الدين.- عبر عن ذلك أحدهم (سائق، ٤١سنة، الإسكندرية) فقال: «فيه كلام مكرر، محفوظ ومكرر عند بعض الدعاة والشيوخ -وخصوصًا بتوع الحكومة-، والناس زهقت من الكلام المكرر، مفروض يجددوا كلامهم عشان الناس تبقى حواليهم، ويحبوهم، وتتغير أفعالهم للأحسن». وللخروج من جمود التكرار: لابد من الاعتماد على آلية السؤال والجواب بين منتج الخطاب ومتلقيه، بدلاً من أن يسير الخطاب فى صيغة أوامر فى اتجاه واحد، أو كما يتصور أحد المبحوثين (موظف، ٢٣سنة، الإسكندرية) فإن من المهم أن «نبدأ بالدين كمعلومة

مش أوامر، وأن الناس العادية تشارك فى الحوار، مش يبقى الكلام فى اتجاه واحد». ويرى آخر (صاحب مصنع، ٥٠سنة، طنطا): «كل كلام فى الدين بيفيد الناس، خاصة فى البرامج اللى يبقى فيها مشاركة بين الناس وعالم الدين؛ لأن بيسألوا عن حاجات بتفيدهم، والإجابات بترشدهم للصح، واللى فيه صالحهم».

وكشفت استجابات المبحوثين أيضًا: عن أن مضمون الخطاب السائد فى شقه الرسمى يدور -فى جزء كبير منه- حول مسائل الأحوال الشخصية، وأن هذه المسائل تستحوذ على اهتمام نسبة كبيرة من الجمهور العام، وتتجلى فى كثرة الأسئلة التى يوجهونها للمفتين والدعاة والعلماء بشكل عام، كما تتجلى فى إلحاح البعض منهم على ضرورة الاهتمام بمثل هذه القضايا، وتخصيص خطوط اتصال هاتفية مجانية لتمكين الراغبين فى الاستفسار والاستفتاء من الوصول إلى العلماء، حتى يعرضوا عليهم مشكلاتهم الخاصة، ويحصلوا على حلول لها. ومن جهة أخرى لا تحظى القضايا العامة باهتمام يذكر سواء من منتجى الخطاب الرسمى أو من مستقبليه، وذكر البعض أن قضايا الشباب، وعلاقة المسلمين بغيرهم، والحرية والعدالة، كلها إما غائبة تماماً أو حاضرة بشكل محدود وغير كاف.

وبسؤالهم عن رأيهم فى مضمون المواد الدينية التى تقدم من خلال المقررات الدراسية، أو عبر وسائل الإعلام، وبخاصة التليفزيون؟! أفادوا بأن تلك البرامج والمقررات غير كافية، وذات أثر ضعيف فى التوجيه الدينى، وأرجعوا ذلك إلى عدة أسباب من أهمها: ضيق وقت البرامج الدينية فى التليفزيون، وعدم تخصص مقدمى تلك البرامج من المذيعين والمذيعات فى الثقافة الدينية، واستبعاد العلماء الذين يحظون بثقة الناس وتقديم الذين يحظون بثقة الحكومة، واستخدام لغة معقدة وصعبة الفهم بالنسبة لعموم الناس. قال أحدهم (موظف، ٣٠سنة، القاهرة الكبرى): «البرامج الدينية الكويسة موجودة على الفضائيات وممنوعة من التلفزيون العادى بأمر من الحكومة. من يقدم البرامج فى التلفزيون العادى محدش فاهمه، لازم الأسلوب يكون سهل وواضح، بلاش استخدام الألفاظ الجامدة اللى بيبقى صعب فهمها».

ولا يختلف رأيهم فيما تحمله المقررات الدراسية من مواد دينية عن رأيهم فى برامج التليفزيون، فهى -من خلال متابعتهم لأبنائهم فى المدارس- قليلة، ولا تؤثر مادة الدين فى مجموع درجات الطالب فى الامتحانات، ومن هنا لا تحظى هذه المادة بالاهتمام الذى

تستحقه، ولا تنتج أثرها المطلوب. ولمثل هذه الأسباب يرى أحدهم (عامل، ٥٦سنة، الحجانية/ بحيرة) أنه « مفروض يخلُّوا الدين مادة أساسية تضاف للمجموع، ومفروض يزودوا المدارس الأزهرية؛ لأن المدارس الأزهرية بتعلم العيال الدين والأدب والأخلاق ».

ويلفت النظر هنا -مرة أخرى- أن الذين أجرينا معهم المقابلات جميعهم -على اختلاف انتماءاتهم الجغرافية وخلفياتهم المهنية- أبدوا رأيًا واحدًا فيما يتعلق بمضمون الخطاب الدينى الرسمى السائد، وهو أنه يفتقد إلى قوة التأثير، وأنه أقل بكثير مما يجب أن يكون عليه من حيث عدم شموله لموضوعات وقضايا تهم الناس، ومن حيث ضيق المساحات المخصصة له فى مختلف وسائل الإعلام، وضعف مستوى الأداء الإعلامى الخاص بهذا الخطاب.

٣- التجديد فى وسائل نقل الخطاب:

جاءت استجابات أفراد العينة بشأن رأيهم فى وسائل نقل الخطاب الدينى محملة بكثير من النقد، والشعور بقدر كبير من المفارقة، بين إعجابهم بالتقدم التكنولوچى فى وسائل الاتصال والإعلام الرسمى من جهة، وبين رتابة وجمود الخطاب الدينى الذى يبث من خلال هذه الوسائل من جهة أخرى. وانصب معظم هذا النقد على قنوات التليفزيون المصرى، ومن بعده على قنوات الإذاعة المصرية -فيما عدا إذاعة القرآن الكريم التى حظيت بالثناء كما أسلفنا. -أما خطب الجمعة والدروس المسجدية فقد سبق أن تناولناها فى سياقات أخرى. ولم تكن الوسائل المقروءة مثل الكتب والصحف والمجلات، موضع اهتمام بالنسبة لأغلبية العينة لأسباب متعددة منها الأمية، وارتفاع أسعار الكتب، وصعوبة فهم ما هو مكتوب بالنسبة لمن يعرفون القراءة والكتابة، وعدم توافر الوقت اللازم للقراءة إلا لعدد قليل جدًّا.

وقد وجهنا عددًا من الأسئلة حول مقرر التربية الدينية فى المدارس كوسيلة أساسية تسهم فى نقل الخطاب الدينى إلى الأجيال الجديدة؛ وذلك بهدف محدد وهو معرفة الانطباع العام الذى يتركه هذا المقرر فى أذهان الجمهور -دون الدخول فى تفصيلات هذا المقرر أو محتوياته- باعتبار أن أغلبية هذا الجمهور هم من أولياء أمور التلاميذ؛ أى ولديهم حد أدنى من المعرفة عن الجدل الدائر -منذ فترة طويلة- حول التربية الدينية فى المدارس، والدعوة إلى تغييرها أو تطويرها وما إلى ذلك.

ووجهنا أسئلة أخرى حول وسائل الإعلام عامة، والتليفزيون باعتباره الأوسع انتشارًا، والأكثر قدرة على التأثير خاصة.

وبمزيد من التحليل للاستجابات التى أدلى بها أفراد العينة اتضح الآتى:

أ- يوجد شعور بالإحباط بسبب الفجوة الكبيرة بين التقدم الهائل فى تكنولوچية الاتصال ووسائل الإعلام، وبين جمود ورتابة الخطاب الدينى الذى تنقله هذه الوسائل إلى الجمهور العام. ولقد تكررت عبارات التعجب فى آراء المبحوثين من التقاعس عن توظيف هذا التقدم التكنولوچى من أجل إنتاج خطاب دينى أكثر فعالية، وأقدر على التأثير مثلما يحدث بالنسبة لأنواع الخطابات الأخرى التى تنقلها هذه الوسائل ذاتها، وبخاصة التليفزيون. أحدهم (تاجر،٤٣سنة، دمياط) عبر عن ذلك بقوله: «ليه ما يعملوش برامج تحبب الناس فى الفضيلة والتمسك بأحكام الدين بأسلوب سهل وبسيط، زى اللى بيعملوه فى الإعلانات... مرة واحدة شفت إعلان عن القطة اللى بتاكل حرام والقطة اللى صاحبها حط لها أكل. وبيَّن الفرق بين الحلال والحرام، دى لفتة كويسة، مفروض يكون فى تجديد فى الأسلوب، والاستفادة من إمكانيات الصورة المرئية... عندك النايل سات أخد مبالغ غير عادية، ولم يعملوا فيه قناة دينية، كل اللى عملوه قنوات خارجية ولموضوعات تانية، الكورة بتاخد ساعات أضعاف اللى بياخده الدين». ويرى آخر(موظف،٣٠سنة، القاهرة الكبرى) أن السلطات الرسمية تتعمد إظهار البرامج الدينية فى التليفزيون بصورة ضعيفة وغير جيدة، يقول: «البرامج الدينية الكويسة موجودة على الفضائيات (الخارجية)، وممنوعة من التليفزيون العادى بأمر الحكومة».

ويتعمق الشعور بالإحباط من أداء الخطاب الدينى الذى يقدمه التليفزيون المصرى بمقارنته بما تقدمه الفضائيات القادمة من الخارج، وخاصة بعد أن أصبحت متاحة للجمهور العام على نطاق واسع. تقول إحدى المبحوثات (ربة منزل، ٢٥سنة، القاهرة الكبرى): «فعلاً التليفزيون بيساعد، لكن مش القنوات المحلية، الفضائيات هى اللى بتجيب برامج كويسة، ياريت تبقى البرامج فى التليفزيون العادى كويسة، وتجيب مشاكل وحلها؛ علشان تبقى قريبة من الناس». ولقد تكرر التأكيد على الفرق الكبير بين الأداء الجيد للفضائيات، وتدنى أداء التليفزيون المصرى، وأرجعوا ذلك لأسباب كثيرة منها: عدم التخصص، وضيق الوقت، والخوف من السلطة. وبعضهم لاحظ مفارقة صارخة فى طريقة التلفزيون المصرى فى تقديم البرامج

الدينية؛ حيث يجلس الشيخ أو العالم المعمم أمام « مذيعة خليعة » على حد تعبير أحدهم، يقول (صاحب مصنع، ٥٠سنة، طنطا): « المفروض رجل الدين يرفض يقعد أمام مذيعة بهذا الشكل »، ويرى ضرورة أن يكون هناك اتساق بين الشكل والمضمون؛ حتى يكون الخطاب مؤثرًا.

ب- رغم اتفاق أغلب أفراد عينة البحث على أهمية مادة التربية الدينية فى جميع مراحل التعليم ما قبل الجامعى؛ إلا أنهم يرون أنها غير كافية من الناحيتين الكمية والكيفية للقيام بمهمة تجديد الخطاب الدينى، وبخاصة مقررات الدين فى مدارس التعليم العادى (غير الأزهرى). ويرون أيضًا: أن المشكلة غير مقتصرة على المقرر، وإنما تشمل أيضًا ضعف المدرس الذى يقوم بشرح الموضوعات وتفهيمها للتلاميذ والإجابة عن تساؤلاتهم؛ وذلك لعدم تخصصه فى كثير من الأحيان. وقال أحدهم (تاجر،٥٩سنة، سوهاج): « المقررات ياريت تزيد شوية، عشان فيه عيال مخها مطلمس ما عتفهامش، لازم نبسط ونجيب ناس متخصصة تشرح بأسلوب بسيط ». وآخر (موظف،٢٣سنة، الإسكندرية) عبر عن ذلك فقال: « مقررات التربية الدينية بدون واحد فاهم يقدر يوصل الرسالة ويؤثر فى الأطفال؛ يبقى ملهاش لازمة. تعالى نبص فى المقررات، جزء عم (من القرآن) فى ابتدائى وإعدادى ولكن متلاقيش حد حافظ...فقط اللى بيحفظ الأزهريون ».

ويرحب البعض بالاتجاه نحو تغيير وتطوير منهج التربية الدينية، ولكنهم فى الوقت نفسه يتوجسون خيفة مما سمعوه من أن دعوى التطوير ليست إلا غطاءً للإلغاء الفعلى لهذه المادة استجابة لضغوط أمريكية، يقول (موظف،٣٠سنة، القاهرة الكبرى): « محتاجين تغيير مناهج التربية الدينية الإسلامية فى المدارس، ولكن مش عايزين نبقى زى أمريكا ». ويعتقد آخر: أن الدولة تتعمد تهميش مادة التربية الدينية؛ لأنها « بتعلم العيال الصلاة، وشئون الدين، والدولة مش عايزة كده ».

وكما أن هناك شعورًا بالفجوة بين التطور التكنولوجى الإعلامى، ونوعية الخطاب الدينى الذى تبثه وسائل الإعلام الرسمية، يرى البعض: أن التقدم فى تكنولوجية التعليم لم يوظف لخدمة مادة التربية الدينية، وأن هذا يؤدى إلى إضعاف تأثير هذه المادة وانحسار دورها فى تربية الأجيال الجديدة، ويرى أن من الضرورى توظيف هذه التكنولوجية فى خدمة مقرر التربية الدينية. يقول (موظف،٤٢سنة، سوهاج): « ياريت يكون فيه استغلال للتطور التكنولوجى مثلاً

من خلال ربط شبكات الفيديو كونفرانس بدروس للدعاة الموثوق فى علمهم؛ ليستفيد التلاميذ فى المدارس... وإعطاؤهم مساحة كبيرة لنشر الأفكار الدينية الصحيحة، وزيادة الوعى فى كل المراحل الابتدائى، والإعدادى والثانوى، وأن يزيد الكم، والنوع حسب كل مرحلة».

والحاصل حسب رأيهم: أن مقررات التربية الدينية لا تشكل فى مجملها أداة مساعدة على تجديد الخطاب الدينى وغرسه فى أذهان الأجيال الناشئة. وأن المطلوب هو: أن يعاد النظر فى هذه المناهج، وأن تنقى من الأمثلة التى انقضى زمنها، مثل، مثال الرقيق، ومثال العبيد، وبعض أنواع الموازين والمكاييل التى انقرضت من سوق التعامل. يقول أحدهم (طالب، ١٩ سنة، سوهاج): «بدل موضوع الرقيق يضعوا موضوعات عن الحرية فى الدين الإسلامى؛ لأننا فى حاجة ماسة لها، ويناقشوا الحرية فى الكتب من المنظور الإسلامى، وياريت تكون الأفكار متماشية مع روح العصر...».

إن الملاحظات النقدية التى استنتجناها من استجابات المبحوثين بخصوص مقررات التربية الدينية فى المدارس، تشير بوضوح إلى إدراك الجمهور العام ووعيه -إلى حد ما- بالجدل الدائر حول تطوير مناهج التعليم، -وإن كان بشكل مجمل، وعلى نحو غير دقيق،- مع التشكك المبالغ فيه فى الأغراض المستترة خلف دعوى التطوير. وتشير تلك الملاحظات نفسها إلى وجود أزمة حقيقية فى واحدة من أهم وسائل نقل الخطاب الدينى وغرسه على نطاق واسع بطريقة منهجية ومنظمة عبر مؤسسات التربية والتعليم. وإذا أضفنا هذا الجانب إلى أزمة الخطاب الدينى المنقول عبر وسائل الإعلام الرسمية، اتضح لنا حجم المعضلة التى تواجهها عملية تجديد الخطاب الدينى، واتضح أيضًا أن أزمة التجديد لا تقتصر فقط على المضامين والموضوعات، وإنما تمتد أيضًا إلى العجز عن توظيف الوسائل والتقنيات المتطورة فى خدمة هذا التجديد. ويعنى بهذا أن التجديد فى تكنولوچية الوسائل المتاحة لنقل الخطاب الدينى أسرع وأسبق من التجديد فى مضامين وقضايا هذا الخطاب.

وقد تكون تلك المشكلات التى يعانيها الخطاب الدينى فى مضمونه وفى وسائله – الرسمية- سببًا من الأسباب التى تدفع قطاعات من الجمهور العام إلى البحث عن مصادر أخرى غير رسمية، لإشباع حاجتها إلى المعرفة بأمور الدين وأحكامه، وقد تكررت الإشارة على لسان أغلب المبحوثين إلى شرائط الكاسيت، وشرائط الفيديو، والبرامج الفضائية التى تحتوى

على مواد دينية أنتجها دعاة وعلماء ومفتون غير رسميين، وتحتوى على دروس ومواعظ وخطب وفتاوى وشروحات للقرآن الكريم وأحاديث الرسول (ﷺ)، يشعرون أنهم بحاجة إليها، ويرون أنها تساعدهم على معرفة الصواب من الخطأ، والحلال من الحرام.

خاتمة:

تدعونا محدودية عينة الجمهور العام التى أجرينا مع أفرادها المقابلات المتعمقة - واعتمدنا على الاستجابات التى أدلوا بها فى هذا البحث بشكل أساسى- إلى التحفظ فى تعميم النتائج التى توصَّلنا إليها، وعرضناها فيما سبق، بل وتجعل أى محاولة للتعميم عبارة عن مجازفة لا تدعمها أدلة كافية. ومع ذلك؛ فإن هذه النتائج تظل ذات دلالات مهمة كمؤشرات على الجوانب المختلفة المتعلقة بقضية تجديد الخطاب الدينى كما يدركها أولئك الأفراد من الجمهور العام. ومما يزيد من أهمية دلالات تلك النتائج أنها تقترب كثيرًا من بعض الأفكار والرؤى التى تتردد فى أوساط النخب المعنية بهذا الموضوع، وفى بعض البحوث والدراسات التى حاولت الاقتراب من أزمة الخطاب الدينى فى مصر[٧]، وبخاصة فيما يتعلق بفوضى المنافسة بين المصادر الرسمية وغير الرسمية فى عملية إنتاج الخطاب الدينى، وبغلبة الخطاب الدينى التقليدى واعتماده آلية النقل، وكذلك الانتقادات الموجهة إلى وسائل الإعلام وقنوات نقل الخطاب الدينى المرئى والمسموع والمكتوب[٨]. فمثل هذه الملاحظات المهمة جاءت نتائج تحليلنا لآراء عينة البحث لتؤكدها، ولتدعونا فى الوقت ذاته لمزيد من البحوث والدراسات الميدانية التى تستنطق القطاع الأوسع اجتماعيًّا والمستهدف أساسًا بالخطاب الدينى الذى يلقى عليه، تجديديًّا كان هذا الخطاب أم تقليديًّا.

وبإعادة النظر فى الافتراضات الأربعة التى كانت فى ذهننا -قبل الشروع فى هذا البحث- والتى أوردناها فى مقدمته، وبمقارنتها بمجمل النتائج التى كشفت عنها المقابلات المتعمقة التى أجريناها، اتضح لنا الآتى:

١- أن الوعى العام بقضية تجديد الخطاب الدينى: ليس منخفضًا أو غائمًا على النحو الذى افترضناه، وإنما هناك درجة من الوعى بأزمة هذا الخطاب لا بأس بها لدى هذا الجمهور، وتجلَّى ذلك فى الانتقادات الكثيرة التى وجهها أفراد العينة إلى جوانب مختلفة من الخطاب

السائد، وبخاصة فى شقِّه الرسمى ورموزه، ومضامينه، ووسائل نقله. صحيح أن وعى الجمهور العام قد لا يكون متبلورًا بشكل واضح أو محدد، وقد يكون هذا الوعى جزئيًّا فى بعض الجوانب، وشكليًّا فى جوانب أخرى، ولكن هذا وذاك مما يتفق وطبيعة الجمهور العام ذاته، والتشوهات والتحريفات والانحيازات التى تحف بعملية وصول المعلومات والأفكار المطروحة بصدد هذا الموضوع إلى الجمهور العام.

٢- أكدت النتائج التى توصَّلنا إليها ما افترضناه من أن الجمهور العام يميل إلى عدم الرضا عن الخطاب الدينى السائد؛ ولكن مع تركيز الموقف النقدى على الخطاب الدينى الرسمى، والانصراف إلى جهات وشخصيات أخرى تسهم فى إنتاج الخطاب الدينى بشكل غير رسمى، وتجلى ذلك من تكرار عبارات الإعجاب والإشادة بشخصيات من الدعاة والعلماء من غير خريجى المؤسسات التعليمية الدينية، ومن غير المنتسبين إلى المؤسسات الدينية الرسمية كالأزهر وملحقاته، ودار الإفتاء، والأوقاف.

٣- أكدت النتائج أيضًا ما افترضناه من أن الجمهور العام -رغم كل الانتقادات التى يوجهها للخطاب الدينى الرسمى ورموزه ومؤسساته- يضع ثقته فى تلك المؤسسات، ويعول على القنوات الرسمية -أكثر من غيرها- من أجل تجديد الخطاب الدينى، ولا يبدى الجمهور العام ارتياحًا كبيرًا للخطاب غير الرسمى إلا بسبب ضعف الخطاب الرسمى ذاته؛ ويتجلى ذلك فى الإشادة المستمرة بصورة مثالية للأزهر الشريف، وكثرة الأمنيات بأن يسترد عافيته ويستأنف دوره الفعال فى أداء مهماته فى عملية بناء الوعى الدينى الصحيح، وقيادة تجديد الخطاب السائد، وتخليصه من النواقص والعيوب التى تشوبه، وتقريبه من أفهام عامة الناس؛ حتى يلامس بساطة التدين المصرى وارتباطه بالحياة، فالأزهر كما قال أحدهم « لا يعلى عليه ».

٤- افترضنا أن الجمهور العام: يميل إلى أن يكون التجديد منصبًّا على الجوانب المتعلقة بالمعاملات والعادات بدرجة أكبر من الجوانب الخاصة بالعبادات، فضلاً عن أن هذا الجمهور يسقط من حساب التجديد القضايا السياسية، وكل ما يتعلق بشئون الحكم والسلطة. وجاءت النتائج التى توصلنا إليها لتعدل من هذا الافتراض، حيث تكررت مطالبات أفراد العينة بضرورة إيلاء مزيد من الاهتمام للجوانب المتعلقة بالعبادات، وبالأحوال الشخصية، إلى جانب المعاملات والتصرفات المدنية؛ رغبة فى معرفة الحلال من الحرام فيها، وبخاصة فيما

يتصل بالمعاملات المالية والموقف من فوائد البنوك، ومدى اتساق صيغ التعامل مع البنوك والمصارف مع أحكام الشريعة، ولكن النتائج أكدت أيضًا ما افترضناه من أن القضايا العامة، وبخاصة تلك المتعلقة بالشأن السياسى وكل ما يتعلق بشئون الحكم والسلطة يسقطها الجمهور العام من حساب التجديد، ويعزف عن الخوض فى الحديث عنها، وربما يعكس هذا الموقف قصورًا فى الوعى بمدى ارتباط مثل هذه القضايا بأزمة تجديد الخطاب الدينى بشكل عام، وأن هذه الأبعاد العامة، والسياسية منها بخاصة، هى التى تشكل المناخ العام الذى يؤثر على أية جهود تبذل بهدف تجديد الخطاب، أو إخراجه من أزمته الراهنة.

إن «اتساع الفجوة بين أنماط الحياة المعيشة، وأنماط التفكير الدينى، وبين التحولات المتسارعة»، كل ذلك لا يلقى بأعباء ثقيلة على النخب المعنية بإنتاج الخطاب الدينى فحسب، وإنما على الجمهور العام أيضًا، ويعمق من شعور هذا الجمهور بالازدواجية والتمزق بين ما هو كائن، وبين منظومات القيم والأفكار والمعايير والأحكام الدينية التى يجب أن تضبط وقائع الحياة اليومية الفردية والجماعية. إن إدراك الجمهور العام لجوانب مهمة من أزمة الخطاب الدينى السائد -على النحو الذى بيناه- قد يكون هو المسئول عن نزعة هذا الجمهور نحو تفضيل آلية النقل، باعتبارها الملاذ الآمن لمعرفة أصول الخطاب الدينى العليا المتمثلة فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة؛ بهدف التمسك بها، كما أن هذا الإدراك قد يكون هو المسئول كذلك عن ميل الجمهور العام إلى الإنصات لخطاب النقد -فى ظل غياب خطاب التجديد- الذى يلامس قضايا حياتية مهمة. وإذا صح هذا الاستنتاج؛ فإن اتجاه الجمهور العام يظل داخلاً ضمن إحدى الدوائر التى تبلورت حولها المهمات الكبرى للخطاب الدينى عبر مراحله التاريخية المتعاقبة وهى: مهمة التثبيت؛ التى تعنى المحافظة على أصول العقيدة وتطوير وسائل فعالة تضمن نقلها نقية من جيل إلى الذى يليه، ومهمة الدحض؛ وهى تعنى التصدى لأية انحرافات أو تشويهات قد تتعرض لها تلك الأصول وكشف زيفها، وإبطال حجتها، وتحذير الناس منها، ومهمة التجديد عبر آليات الاجتهاد وشروطه المعتبرة، من أجل استيعاب المستجدات التى تحدث مع التطور الاجتماعى والاقتصادى، ولتقديم حلول للمشكلات والتحديات التى تواجه المجتمع فى حياته اليومية، الفردية والجماعية. وبنظرة تاريخية أكثر شمولاً نلاحظ أن هذه المهمات لم تحظ بعناية منتجى الخطاب بالقدر الذى تستحقه كل منها:

على الدوام، أو فى جميع المراحل التاريخية؛ إذ استأثرت مهمة التثبيت بالجهد الأكبر تارة، بينما استأثرت مهمة الدحض بهذا الجهد تارة أخرى، وكان نصيب مهمة التجديد هو الأقل فى معظم المراحل التاريخية التى تلت الصدر الأول للإسلام، ولا يزال الحال على هذا النحو فى الوقت الراهن؛ حيث تستأثر مهمتا التثبيت والدحض بالقدر الأكبر من اهتمام منتجى الخطاب الدينى، بالرغم من كثرة الاعتبارات والعوامل التى تدعو إلى بذل قدر أكبر من الجهد والاجتهاد للوفاء بمهمة التجديد.

obeikan.com

ملحق
دليل المقابلة المتعمقة حول
تجديد الخطاب الدينى فى مصر
[الآراء والأفكار، وكافة البيانات التى تجيب عن أسئلة هذا الدليل؛ لا تستخدم إلا لغرض البحث العلمى]

المحور الأول: مفهوم الخطاب الدينى:

س١: هل يختلف الكلام فى الدين، عن الكلام فى موضوعات أخرى؟

س٢: إيه هى أهم الموضوعات اللى انت شايف إن الكلام عنها يعتبر كلام فى الدين؟

س٣: هل الكلام فى الدين، يجب أن يقتصر على جهات أو شخصيات معينة؟ وما هى هذه الجهات، ومن هم هؤلاء الأشخاص؟

س٤: إزاى نعرف كلام المتخصص فى الدين، من كلام غير المتخصص فيه؟

س٥: من إمتى بدأت تهتم بالكلام فى الدين؟

المحور الثانى: خصائص الخطاب الدينى السائد:

س١: بتحب تسمع لمين، إذا حبيت تزود معرفتك بأمور الدين؟

س٢: إذا احتجت لاستشارة -تعرف بها رأى الدين فى موضوع معين- بتلجأ لمين عادة؟

س٣: هل يعجبك أسلوب عالم الدين، عندما يتحدث فى أمور الدين؟ وهل تفهمه بسهولة؟

س٤: هل تفضل أن تقرأ بنفسك فى أمور الدين، أم تسمع لأحد المتخصصين أو الدعاة؟

س٥: هل ترى أن ما يقوله علماء الدين، له تأثير فى الواقع، وفى إصلاح أحوال الناس؟

المحور الثالث: قضايا التجديد وموضوعاته الرئيسية:

س١: يا ترى إيه أهم الموضوعات اللى بيهتم بها علماء الدين ودايمًا بيتكلموا فيها؟

س٢: إيه أهم الموضوعات اللى انت شايف إنهم ما بيدوهاش حقها من الكلام والشرح، والناس عمومًا محتاجين لها؟

obeikan.com

س٣: إيه أهم الأسباب اللى بتخلى رجل الدين يبعد عن الموضوعات دى، اللى انت شايف إنها تهم ناس كتير؟

س٤: هل أنت شايف إن الكلام فى غلاء الأسعار -مثلاً- أو أزمة البطالة يمكن أن يتكلم فيها رجل الدين، ويساعد فى إيجاد حلول لها؟

س٥: لما الناس بتوجه أسئلة لعلماء الدين. يا ترى إيه أهم القضايا إللى بيسألوا عنها؟ وليه فى رأيك هم مهتمين بهذه القضايا أكثر من غيرها؟

المحور الرابع: آليات التجديد:

س١: هل ترى إن البرامج الإعلامية (التليفزيونية والإذاعية مثلاً) يمكن تساعد على إن الناس تفهم أمور دينها بشكل أفضل؟ وازاى يمكن إنها تساعد؟

س٢: هل ترى إن المقررات الدراسية فى المدارس بتساعد على نشر رأى الدين وتعليم الأجيال الجديدة أمور دينها؟ وازاى يستفيدوا بها فى تحسين أمور الحياة إللى بيعيشوها؟

س٣: فى رأيك إزاى نقدر نخلى الكلام فى الدين، له تأثير أكبر فى حياة الناس؟

س٤: فيه دعاة أفراد بيتكلموا فى الدين وعلاقته بالدنيا ومشاكل الناس، هل انت شايف إنهم فعلاً بيقولوا كلام جديد ومفيد للناس؟

س٥: إيه هى الأسباب اللى بتخلى الناس يقتنعوا بكلام عالم أو جهة دينية معينة، على كلام عالم أو جهة دينية أخرى؟ (المفتى مثلاً أم أحد العلماء اللى بيتكلموا فى الإذاعة أو التليفزيون).

البيانات الأساسية:

١. محل الإقامة:

٢. السن:

٣. النوع: (ذكر) (أنثى)

٤. المؤهل الدراسى:

٥. المهنة أو الوظيفة:

٦. الديانة:

الهوامش:

(١) راجع مثلاً: محمد منير حجاب، تجديد الخطاب الدينى فى ضوء الواقع المعاصر (القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م). وجعفر عبد السلام (مشرف)، الإسلام وتطوير الخطاب الدينى (رابطة الجامعات الإسلامية – سلسلة "فكر المواجهة" رقم – ٣.

(٢) انظر مثلاً: أعمال اللقاء التشاورى حول «السبل العملية لتجديد الخطاب الدينى» (باريس ١٢و١٣ أغسطس٢٠٠٣م – مركز القاهرة لحقوق الإنسان).

(٣) راجع الفصل الذى كتبه د. أحمد زايد بعنوان «تجديد الخطاب الدينى فى مصر المعاصرة ».

(٤) جمال البنا، تجديد الخطاب الدينى، فى اللقاء التشاورى، مرجع سابق.

(٥) من أنصار هذا الرأى، مع ملاحظة التباينات فيما بينهم: د. نصر حامد أبو زيد، ومحمد شحرور، ومحمد أركون، د. حسن حنفى.

(٦) سيد دسوقى حسن، تجديد الخطاب الدينى (ورقة غير منشورة).

(٧) انظر وقارن ما أوردناه بما أكد عليه نبيل عبد الفتاح فى كتابه: سياسات الأديان: الصراعات وضرورات الإصلاح (القاهرة: مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع /الأعمال الفكرية، ٢٠٠٣م) الباب الرابع (نحو إحياء وإصلاح علوم الدين)، ص٣٥١ – ص٤٢٦.

(٨) لمزيد من التفاصيل انظر: المرجع نفسه، ص٣٦٩ وص٣٧٠.